والقلة[1] . فإن ذكر الغلاء والقلة حجة صحيحة . وعلة عاملة فى الطبيعة[2] . فإذا أجابتك فى الباكورة . فسمها مثل ذلك[3] فى أوائل كثرتها . وأضرب[4] نقصان الشهوة . ونقصان قوة الغلبة . بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة[5] . فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة غدك[6] إلا مثل ما لقيت منها فى يومك . حتى تنقضى أيام الفاكهة . وأنت على مثل ابتداء حالك . وعلى أول مجاهدتك لشهوتك . ومتى لم تعد أيضًا الشهوة فتنة . والهوى عدوًا . اغتررت بهما . وضعفت عنهما . وأئتمنتهما على نفسك . وهما أحضر عدو[7] . وشر دخيل .

فأضمنوا لى النزوة الأولى . أضمن لكم تمام الصبر وعاقبة اليسر . وثبات العز فى قلوبكم . والغنى فى أعقابكم ودوام تعظيم الناس لكم . فإنه لو لم يكن من منفعة الغنى إلا أنك لا تزال معظمًا عند من لم ينل منك قط دهمًا . لكان الفضل فى ذلك بينًا . والربح ظاهرًا . ولو لم يكن من بركة الثروة . ومن منفعة اليسر . إلا أن رب المال الكثير . لو اتصل بملك كبير . وفى جلسائه من هو أوجب حرمة . وأقدم صحبة . وأصدق محبة . وأمتع امتاعًا . وأكثر فائدة وصوابًا إلا أنه خفيف[8] الحال . قليل ذات اليد . ثم أراد ذلك الملك أن يقسم مالاً . أو يوزع بينهم طرفًا . لجعل حظ الموسر أكثر . وإن كان فى كل شىء دون أصحابه . وحظ المخف أقل . وإن كان فى كل شىء فوق أصحابه .

* * *

قد ذكرنا رسالة سهل بن هارون . ومذهب الحزامى . وقصص الكندى . وأحاديث الحارثى . واحتجاجاتهم . وطرائف بخلهم . وبدائع حيلهم .

* قصة ابن أبى المؤمّل :

قلت لمحمد بن أبى المؤمل :

أراك تطعم الطعام . وتتخذه[9] . وتنفق المال وتجود به . وليس بين قلة الخبز وكثرته كثير ربح . والناس يبخلون من قل عدد خبزه . ورأوا أرض خوانه[10] . على أنى أرى جماجم[11] من

---

(١) تكون الفاكهة فى أول طرحها بالأسواق غالية وقليلة . (٣) عاملها مثل تلك المعاملة .
(٢) مؤثر فى الطبيعة الإنسانية . (٤) المراد بالضرب هنا : الخلط .
(٥) يقول : أضف ما حدث من نقصان شهوة نفسك وغلبتها عليك إلى ما كان نتيجة لذلك من الرخص والكثرة .
(٦) أى فى غدك . (٧) أشد عدو ماثل . (٨) ليس غنيًا .
(٩) تعمله وتجيده . (١٠) أى أن سطح المائدة لا يغطيه الخبز . (١١) المراد : أفراد على سبيل المجاز .

يأكل معك أكثر من عدد خبزك . وأنت لو لم تتكلف . ولم تحمل على مالك باجادته . والتكثير منه . ثم أكلت وحدك . لم يلمك الناس . ولم يكترثوا لذلك منك . ولم يقضوا عليك بالبخل ولا بالسخاء . وعشت سليمًا موفورًا . وكنت كواحد من عرض الناس[1] . وأنت لم تنفق الحرائب[2] وتبذل المصون . إلا وأنت راغب فى الذكر والشكر . وإلا لتحرز الأجر ! فقد صرنا لقلة عدد خبزك من بين الأشياء . نرضى لك من الغنيمة بالإياب . ومن غنم الحمد والشكر بالسلامة من الذم واللوم ؟ فزد فى عدد خبزك شيئًا . فإن بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكرًا . وذلك الذم حمدًا . أعلمت أنك لست تخرج من هذا الأمر بعد الكلفة العظيمة سالمًا . لا لك ولا عليك ؟ فأنظر فى هذا الأمر رحمك الله !

قال : يا أبا عثمان ! أنت تخطىء . وخطأ العاقل أبدًا يكون عظيمًا . وإن كان فى العذر قليلاً . لأنه إذا أخطأ بتفقه[3] وإحكام . فعلى قدر التفكر والتكلف[4] . يبعد من الرشاد . ويذهب عن سبيل الصواب . وما أشك أنك قد نصحت بمبلغ الرأى منك[5] . ولكن خف ما خوفتك . فإنه مخوف . بل الذى أصنع لأن الخبز إذا كثر على الوائد . ورث ذلك النفس صدودًا . ولأن كل شىء من المأكول وغير المأكول[6] إذا ملأ العين ملأ الصدر . وفى ذلك موت الشهوة . وتسكين الحركة . ولو أن رجلاً لمس على بيدر[7] تمر فائق . وعلى كدس كمثرى منعوت[8] . وعلى مائة قنو[9] موز موصوف . لم يكن أكله إلا على قدر استطرافه[10] . ولم يكن أكله إلا على قدر أكله إذا أتى بذلك فى طبق نظيف . مع خادم نظيف . عليه منديل نظيف .

وبعد . فأصحابنا آنسون . واثقون . مسترسلون[11] . يعلمون أن الطعام لهم اتخذ . وأن أكلهم له أوفق من تمزيق الخدم والاتباع له . ولو احتاجوا[12] لدعوا به . ولم يختشموا منه . ولكان الأقل منهم أن يجربوا ذلك المرة والمرتين . وأن لا يقضوا علينا بالبخل . دون أن يروه[13] ! فإن كانوا محتشمين . قد بسطناهم . وساء ظنهم بنا . مع ما يرون من الكلفة لهم . فهؤلاء أصحاب تجن وتسرع . وليس فى طاقتى أعتاب[14] المتجنى ولا رد المتسرع !

قلت له : إنى قد رأيت أكلهم فى منازلهم . وعند إخوانهم . وفى حالات كثيرة . ومواضع

(١) وسطهم .
(٢) جمع حربية : المال الضرورى للإنسان .
(٣) تبغهم .
(٤) مشقة التعمق .
(٥) بما بلغ إليه رأيك .
(٦) فى الأكل .
(٧) كومة .
(٨) بالجودة .
(٩) سباطة .
(١٠) أى لا يكون أكله بمقدار استحسانه .
(١١) متأنسون بنا .
(١٢) إلى الخبز .
(١٣) أى يروا أثاره .
(١٤) اعتبه : أزال سبب عتابه .

مختلفة ، ورأيت أكلهم عندك ، فرأيت شيئًا متفاوتًا ، وأمرًا متفاقمًا ، فأحسب[١] أن البخل عليهم غالب ، وأن الضعف[٢] لهم شامل ، وأن سوء الظن يسرع إليهم خاصة . ثم لا تداوى هذا الأمر بما لا مؤنة فيه وبالشيء الذى لا قدر له[٣] ؟ أو تدع دعاءهم[٤] ، والإرسال إليهم ، والحرص على إجابتهم[٥] ؟ أو لقوم ليس يلقون أنفسهم عليك ، وإنما يجيئونك بالاستحباب منك . فإن أحببت أن تمتحن ما أقول ، فدع مواترة[٦] الرسل والكتب ، والتغضب عليهم إذا أبطؤا ، ثم أنظر !

قال : فإن الخبز إذا كثر الخوان ، فالفاضل مما يأكلون ، لا يسلم من التلطيخ والتغمير[٧] . والجردقة الغمرة ، والرقاقة المتلطخة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحيي أيضًا من اعادتها ، فيذهب ذلك الفضل[٨] باطلاً ، والله لا يحب الباطل .

قلت : فإن ناسًا يأمرون بمسحه ، ويجعلون الثريدة منه ، فلو أخذت بزيهم[٩] ، وسلكت سبيلهم ، أتى ذلك لك[١٠] ما تريد ونريد .

قال : أفلست أعلم كيف الثريدة ، ومن أى شيء هى ؟ وكيف أمنع نفسى التوهم ، وأحول بينها وبين التذكير؟ ولعل القوم أن يعرفوا ذلك على طول الأيام ، فيكون هذا قبيحًا !

قلت : فتأمر به للعيال ، فيقوم الحوارى[١١] المتلطخ ، مقام الخشكار[١٢] النظيف . وعلى أن المسح والدلك يأتى على ما تعلق به الدسم !

قال : عيالى ـ يرحمك الله ـ عيالان : واحد أعظمه عن هذا ، وأرفعه عنه ، وآخر لم يبلغ عندى أن يترف بالحوارى .

قلت : فاجعل إذن جميع خبزك الخشكار ، فإن فضل ما بينه وبين الحوارى فى الحسن والطيب ، لا يقوم بفضل ما بين الحمد والذم[١٣]

قال : فها هنا رأى هو أعدل الأمور وأقصدها : وهو أنا نحضر هذه الزيادة من الخبز على طبق ، ويكون قريبًا حيث تناله يده كثرة على مائدته .

---

(١) فعل أمر والمراد اعتقد .
(٢) الحلق .
(٣) الإكثار من الخبز على المائدة .
(٤) دعوتهم إلى الطعام .
(٥) للدعوة .
(٦) متابعة .
(٧) فى دسم اللحم .
(٨) الزيادة .
(٩) بهيئتهم . والمراد تفعل مثلهم .
(١٠) حقق لك .
(١١) خبز من دقيق أبيض جيد .
(١٢) الدقيق الخشن غير المنخول .
(١٣) يعنى أن الفرق بين الصنفين ليس شيئًا إلى جانب حمد اناس لك إذا قدمت لهم الخبز الكثير من الخشكار .

قلت : فالمانع من طلبه ، هو المانع من تحويله[1] . فأطعنى وأخرج هذه الزيادة من مالك كيف شئت . وأعلم أن هذه المقايسة[2] ، وطول هذه المذاكرة ، أضر علينا مما نهيتك عنه ، وأردتك على خلافه .

فلما حضر وقت الغداء ، صوت بغلامه ـ وكان ضخمًا جهير الصوت ، صاحب تقعير[3] ، وتفخيم ، وتشديق ، وهمز[4] ، وجزم[5] ـ يا مبشر ! هات من الخبز تمام[6] عدد الرؤوس !

قلت : ومن فرض لهم هذه الفريضة ؟ ومن جزم عليهم هذا الجزم ؟ أرأيت إن لم يشبع أحدهم رغيفه ؟ أليس لابد له من أن يعول على رغيف صاحبه أو يتنحى وعليه بقية[7] ، ويعلق يده منتظرًا للعادة[8] ؟ فقد عاد الأمر[9] ، وبطل ما تناظرنا فيه .

قال لا أعلم إلا بترك الطعام ألبته ، أهون علينا من هذه الخصومة .

قلت : هذا ما لا شك فيه ، وقد علمت عندى بالصواب[10] وأخذت لنفسك بالثقة إن وفيت بهذا القول .

وكان أكثر ما يقول : يا غلام ! هات شيئًا من قلية[11] وأقل منها ، وأعد لنا ماء باردًا وأكثر منه .

وكان يقول : قد تغير كل شيء من أمر الدنيا ، وحال[12] عن أمره وتبدل ، حتى المؤاكلة . قاتل الله رجالاً كنا نؤاكلهم[13] ، ما رأيت قصعة قط رفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل . وكانوا يعلمون أن إحضار الجدى إنما هو شيء من آيين[14] الموائد الرفيعة ، وإنما جعل كالعاقبة والخاتمة[15] ، وكالعلامة للبسر[16] وللفراغ ، وأنه لم يحضر للتمزيق والتخريب ، وأن أهله لو أرادوا به السوء لقدموه قبل كل شيء ، لتقع الحدة به ! بل ما يأكل منه إذا جيء به إلا العابث[17] ، إلا الذى لو لم يره لقد كان يرفع يده ، ولم ينتظر غيره . ولذلك قال أبو الحارث جمين ، حين رآه لا يمس « هذا المدفوع عنه[18] » . ولولا أنه على ذلك شاهد الناس ، لما قال

---

(١) إلى الخوان .
(٢) الموازنة بين رأيى ورأيك .
(٣) تقعر : تكلم بأقصى حلقه .
(٤) ضغط الكلمات للتأثير .
(٥) أى صوت قاطع لا تردد فيه .
(٦) المقصود إحضار الخبز بعدد الأكلين .
(٧) أى له بقية يريد أن يأكلها .
(٨) المتبعة : وهو أن يأخذ الأكل رغيفًا ثانيًا .
(٩) رجعنا إلى ما كنا فيه من لومى إياك على قلة الخبز .
(١٠) كنت فى رأيى على صواب .
(١١) مرقة .
(١٢) تغير .
(١٣) تعجب من حسن سلوكهم فى الطعام .
(١٤) عادة أو قانون .
(١٥) خاتمة تفسير للعاقبة . أى يكون الجدى آخر الألوان .
(١٦) البسر : الاعجال .
(١٧) الذى يفعل ما لا فائدة فيه .
(١٨) الذى لا تناله الأيدى .

ما قال . ولقد كانوا يتحامون بيضة البقيلة[1] ، ويدعها كل واحد منهم لصاحبه ، حتى إن القصعة لقد كانت ترفع ، وإن البيض خاصة لعلى حاله ، وأنت اليوم إذا أردت أن تمتع عينيك بنظرة واحدة منها ، ومن بيض السلافة[2] ، لم تقدر على ذلك[3] . لاجرم لقد كان تركه ناس كثير ، ما بهم إلا أن يكونوا شركاء من ساءت رعته[4] .

وكان يقول : الآدام[5] أعداء للخبز ، وأعداها له المالح[6] فلولا أن الله انتقم منه[7] ، وأعان عليه بطلب صاحبه[8] الماء وإكثاره منه ، لظننت أنه سيأتى على الحرث والنسل[9] .

وكان مع هذا يقول : لو شرب الناس الماء على الطعام ، ما اتخموا ، وأقلهم عليه شرابًا ، أكثرهم عنه تخمًا : وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدرى . فإذا ازداد على مقدار الحاجة بشم[10]. وإذا نال من الماء شيئًا بعد شىء ، عرفه ذلك مقدار الحاجات ، فلم يزد إلا بقدر المصلحة ، والأطباء يعلمون ما أقول حقًا ، ولكنهم يعلمون أنهم لو أخذوا بهذا الرأى ، لتعطلوا ، ولذهب المكسب ! وما حاجة الناس إلى المعالجين إذا صحت أبدانهم ؟ وفى قول جميع الناس : إن ماء دجلة أمرأ من الفرات ، وإن ماء مهران أمرأ من ماء نهر بلخ ، وفى قول العرب : هذا ماء نمير يصلح عليه المال[11] ، ودليل على أن الماء يمرىء ، حتى قالوا : إن الماء الذى يكون عليه النفاطات[12]، أمرأ من الماء الذى يكون عليه القيارات[13]. فعليكم بشرب الماء على الغداء فإن ذلك أمرأ .

وكان يقول : ما بال الرجل إذا قال : يا غلام ! اسقنى ماء ، أو أسق فلانًا ماء ، أتاه بقلة على قدر الرى ، فإذا قال : أطعمنى شيئًا ، أو قال : هات لفلان طعامًا ، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة . والطعام والشراب أخوان متخالفان ومتآزران .

وكان يقول : لولا رخص الماء ، وغلاء الخبز ، لما كلبوا على الخبز ، وزهدوا فى الماء . والناس

---

(١) قطعة من اللحم مستديرة كالبيضة يوضع عليها الزيت وبعض الخضر .
(٢) نوع من الطير .
(٣) لاسراع الآكلين بالتهامة .
(٤) رعته : ادبه ، والمعنى أنه لا عجب أن كثيرًا من الناس تركوا الإطعام لأنفسهم أن يكونوا شركاء لمن ساء أدبهم على الطعام
(٥) جمع أدم وهو ما يؤتدم به .
(٦) لأنه يفتح الشهية . والمقصود من عداوة الخبز الأكثار من أكله .
(٧) من المالح .
(٨) آكله .
(٩) الزروع والمواشى . والمراد أن الأكل لا يبقى على شىء فوق المائدة .
(١٠) البشم التخمة .
(١١) المراد بالمال هنا ما يملك من الإبل والغنم .
(١٢) مكان النفط . أى الماء الذى يكون قريبًا من هذا المكان .
(١٣) مكان القير وهو القطران أو القار أو ما يشبهه .

الجزر الصافى ، وهذا الباقلى الأخضر العباسى[٢] . أطيب من كمثرى خراسان ، ومن موز البستانى ؛ ولكنهم لقصر همتهم ، لا يشتهون إلا على قدر الثمن ، ولا يحنون إلى الشىء إلا على قدر القلة . وهذه العوام فى شهوات الأطعمة ، إنما تذهب مع التقليد ، أو مع العادة ، أو على قدر ما يعظم عندها من شأن الطعام . وأنا لست أطعم الجزر المسلوق بالخل والزيت والمرى[٣] ، دون الكمأة[٤] بالزبد والفلف ، لمكان الرخص[٥] ، أو لموضع الاستفصال[٦] . ولكن لمكان طيبه فى الحقيقة ، ولأنه مالح الطبيعة[٧] علم ذلك من علم ، وجعل ذلك من جهل .

* * *

وكان إذا كان فى منزله ، فربما دخل عليه الصديق له ، وقد كان تقدمه الزائر أو الزائران ـ وكان يستعمل على خوانه من الخدع والمكائد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس بن زهير والمهلب بن أبى صفرة ، وخازم بن خزيمة ، وهرثمة بن أعين : وكان عنده فيه[٨] من الاحتيال والمهلب بن عمرو بن العاص . ولا المغيرة بن شعبة ! وكان كثيرًا ما يمسك الخلال بيده ، ليؤيس الداخل عليه من عدائه[٩] ـ فإذا دخل عليه الصديق له[١٠]، وقد عزم على إطعام الزائر والزائرين قبله ، وضاق صدره بالثالث ـ وإن كان قد دعاه وطلب إليه ـ أراد أن يحتال له[١١] ، أو الرابع إن ابتلى كل واحد منهما بصاحبه[١٢] فيقول عند أول دخوله . وخلع نعله ـ وهو رافع صوته بالتنويه وبالتشنيع[١٣] ـ : « هات يا مبشر لفلان شيئًا يطعم منه ، هات له شيئًا ينال منه ، هات له شيئًا ؟ » اتكالاً على خجله أو غضبه أو انفته ، وطمعًا ، فى أن يقول : « قد فعلت[١٤]!

فإن أخطأ ذلك الشق ، وضعف قلبه ، وحصر ، وقال : « قد فعلت » وعلم أنه قد أحرزه[١٥]، وحصله وألقاه وراء ظهره ، ولم يرض أيضًا بذلك حتى يقول : « بأى شىء تغديت ؟ » فلابد له من أن يكذب ، أو ينتحل المعاريض[١٦] . فإذا استوثق منه رباطًا ، وتركه لا يستطيع أن يترمرم[١٧]، له يرض بذلك حتى يقول فى حديث له : « كنا عند فلان ، فدخل

(١) أصله .
(٢) نوع جيد من الفول الأخضر (الحراق) .
(٣) الذى يؤتدم به .
(٤) نبات ثمرته مستديرة مثل القلقاس .
(٥) أى لرخص الجزر .
(٦) أو لأنه أفضل .
(٧) فيستدعى شرب الماء المفيد على الطعام .
(٨) فى الخوان وما يتعلق به .
(٩) إذ يوهمه بتخليل أسنانه أنه فرغ من الطعام .
(١٠) رجوع إلى ما قبل الجمل الأعتراضية .
(١١) لصد الصديق الثالث .
(١٢) إذ أن كلا منهما يكون سببًا لصد الآخر .
(١٣) بنبرات الصوت .
(١٤) يعنى قد أكلت .
(١٥) ملكه بهذا الاعتراف .
(١٦) يدعى أى شىء يبرر رفضه الأكل .
(١٧) يتحرك .

عليه فلان ، فدعاه إلى غدائه ، فامتنع . ثم بدا له فقال : فى طعامكم بقيلة أنتم تجيدونها ثم تناوله » . فلا يزال يزيد فى وثاقه ، وفى سد الأبواب عليه وفى منعه البدوات [١] ، حتى إذا بلغ الغاية قال : « يا مبشر : أما إذا تغدى فلان واكتفى ، فهات لنا شيئًا نعبث به ؟ » .

فإذا وضعوا الطعام ، أقبل على أشدهم حياء ، أو على أشدهم أكلاً ، فسأله عن حديث حسن ، أو عن خبر طويل . ولا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الأشارة باليد أو الرأس . كل ذلك ليشغله ، فإذا أكلوا صدرًا [٢] ، أظهر الفتور ، والتشاغل ، والتنقر ، كالشبعان الممتلىء ، وهو فى ذلك غير رافع يده ، ولا قاطع أكله ، إنما هو النتف بعد النتف [٣] . وتعليق اليد فى خلل ذلك . فلابد من أن ينقبض بعضهم ، ويرفع يده ، وربما شمل ذلك جماعتهم . فإذا علم أنه قد أحرزهم واحتال لهم ، حتى يقلعهم من مواضعهم من حول الخوان ، ويعيدهم إلى مواضعهم ، ومن مجالسهم ، وابتدأ الأكل ، فأكل أكل الجائع المقرور [٤] .

* * *

وقال : إنما الأكل تارات والشرب تارات .

وكان كثيرًا ما يقول لأصحابه إذا بكروا عليه : لم لا نشرب أقداحًا على الريق ؟ فإنها تقتل الديدان ، وتخفش [٥] لأنفسنا قليلاً ، فإنها تأتى على جميع الفضول ، وتشهى الطعام بعد ساعة . وسكره [٦] أطيب من سكر الكظة [٧] ، والشراب على الملية [٨] بلاء وهو بعد ذلك دليل على أن نبيذى خالص ، ومن لم يشرب على الريق فهو نكس فى الفتوة [٩] ، ودعى فى أصحاب النبيذ ، وإنما يخاف على كبدع من سورة الشراب على الريق ، من بعد عهده باللحم ، وهذه الصبحة [١٠] تغسل عنكم الأوضار ، وتنقى التخم ، وليس دواء الخمار إلا الشرب بالكبار [١١] ، والأعشى [١٢] كان أعلم به [١٣] حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

---

(١) منعه من أن يبدو له رأى آخر .
(٢) أى قطعوا شوطًا فى الأكل .
(٣) انتزاع قطعة من هنا وقطعة من هناك .
(٤) من القر وهو البرد .
(٥) تخرج والمعنى أنها تريح أنفسنا لما تخرجها من فضول (زوائد) فى أجسامنا .
(٦) سكر الشرب على الريق .
(٧) الامتلاء .
(٨) الملية المخففة من المليئة ، أى المعدة المملوءة .
(١٠) الشرب صباحًا .
(٩) أى ضعيف ساقط الهمة . الفتوة : للرجولة الكاملة (١١) أى بالأقداح الكبيرة .
(١٢) الاعشى من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية ، ومن شعراء المعلقات . عاش طويلاً . وادرك الإسلام ولم يسلم توفى ٧ هـ .
(١٣) أى بهذا الدواء .

وهذا[1] ـ حفظك الله ـ هو اليوم الذى كانوا لا يعاينون فيه لقمة واحدة ـ ولا يدخل أجوافهم من النقل[2] ما يزن خردلة وهو يوم سروره التام ، لأنه قد ربح المرزأة[3] ، وتمتع بالمنادمة .

واشترى مرة شبوطة[4] وهو ببغداد . وأخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها[5] . وارتفع فى ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ـ وهو بصرى لا يصبر عنه ـ فكان قد أكبر أمر هذه السمكة ، لكثرة ثمنها ، ولسمنها وعظمها ، ولشدة شهوته لها . فحين ظن عن نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرد بأطايبها . وحسر عن ذراعيه ، وصمد صمدها [6] هجمت عليه ومعى السدرى [7] . فلما رآه رأى الموت الأحمر ، والطاعون الجارف ، ورأى الحتم [8] المقضى ، ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين[9] .

فلم يلبثه السدرى حتى قور السرة بالمبال[10] ، فأقبل علىّ وقال لى : « يا أبا عثمان ! السدرى يعجبه السرر » . فما فصلت الكلمة من فيه ، حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعًا . فأقبل على فقال : « والسدرى يعجبه الاقفاء » ، فما فرغ من كلامه إلا والسدرى قد اجترف المتن[11] كله ، فقال : « يا أبا عثمان ! والسدرى يعجبه المتون » ! ولم يظن أن السدرى يعرف فضيلة ذنب الشبوط ، وعذوبة لحمه . وظن أنه سيسلم له ، ظن معرفة ذلك[12] من الغامض ، فلم يدر إلا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعًا . ولولا أن السدرى أبطره[13] . وأثقله ، وأكمده[14] ، وملأ صدره[15] ، وملأه غيظًا ، لقد كان أدرك معه طرفًا . لأنه كان من الأكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدرى عليه .

فلما أكل السدرى جميع أطايبها . وبقى هو فى النظارة[16] . ولم يبق فى يده مما كان يأمله فى تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ، ظن أن فى سائر السمكة ما يشبعه ، ويشفى من

---

(١) هذا من كلام الجاحظ تعليقا على نصيحته ابن أبى المؤمل .
(٢) ما يتنقل به على اشراب . وليس مقيدًا بشىء خاصة من الطعام .
(٣) المرزأة : أن تنال خيرًا من غيرك . فأنت ترزأه . والمقصود بالربح أنه لن يطعمهم .
(٤) نوع من الأسماك دقيق الذنب عريض الوسط صغير الرأس .
(٥) اشتراها غالية .
(٦) قصد إليها .
(٧) شاعر من أصدقاء الجاحظ .
(٨) القضاء .
(٩) نوع كبير من الحيات .
(١٠) ما يظن أنه مكان البول من السمكة .
(١١) الظهر .
(١٢) معرفة مزايا الذنب .
(١٣) ادهشه .
(١٤) أحزنه .
(١٥) حقدًا .
(١٦) من ينظرون إلى من يأكلون .

*قرمة[1]، فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذى كام يمسك بأرماقه[2]، وحشاشات نفسه . فلما رأى السدرى يفرى الفرى[3] ويلتهم التهامًا ، قال : « يا أبا عثمان ! السدرى يعجبه كل شىء » . فتولد الغيظ فى جوفه ، وأقلقته الرعدة فخبثت نفسه[4] ، فمازال يقىء ويسلح ، ثم ركبته الحمى .

وصحت توبته ، وتم عزمه فى ألا يوأكل رغيبًا[5] أبدًا . ولا زهيدًا[6] ، ولا يشترى سمكة أبدًا ، رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها إليه ألا يقبلها[7] ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها .

* * *

فهذا ما كان حضرنى من حديث ابن أبى المؤمل ، وقد مات عفا الله عنا وعنه(* *)

---

(١) شدة الجوع .
(٢) جمع رمق .
(٣) يقال يفرى الفرى أى يأتى بالعجب .
(٤) مال إلى النهوع والقيىء .
(٥) أكولاً .
(٦) قليل الأكل ، والمراد أنه لا يوأكل أحدًا .
(٧) أى لا يقبلها وأن أهداها إليه أصحابه .

(* *) إلى هنا ينتهى الجزء الأول من كتاب (البخلاء) وفيه تعرفنا على مجموعة من البخلاء : سهل بن هارون وأهل خراسان ، أهل البصرة من المسجدين وزبيدة بن حميد ، ليلى التاعطية ، أحمد بن خلف ، خالد بن يزيد ، أبو جعفر ، الخزامى ، الحارثى ، أبو ناتك ، والكندى ، وابن إلى المؤمل . ويليه الجزء الثانى . وأوله : قصة أسد بن جانى وذلك فى معظم الطبعات التى اشرنا إليها فى مقدمة الكتاب .

* أسد بن جانى :

فأمَّا أسدُ بنُ جَانِى فكان يَجْعَلُ سَرِيرَه فى الشِّتاء من قَصَب مُقَشَّر[1] ، لأنَّ البراغيثَ تَزْلَقُ عن لِيط[2] القَصَب ، لِفَرْطِ لِينه[3] ومَلاَسَتِه .

وكان إذا دخلَ الصيفُ ، وحَرَّ عليه بيتهُ ، أثارَهُ[4] حتَّى يُغْرِقَ المِسْحَاةَ[5] . ثم يَصُبُّ عليه حَراراً كثيرةً من ماء البئْر . ويَتَوَطَّؤه حتى يَسْتَوِىَ . فلا يزالُ ذلك البيتُ بارداً مادام نَدِياً . فإذا امتَدَّ به النَّدَى ، ودَامَ بَرْدُه بـدوامه ، اكْتَفَى بذلك التَّبْريد صَيْفَتَهُ . وإن جَفَّ قبل انقضاء الصَّيْف ، وعاد عليه الحرّ ، عاد عليه بالإثارة والصَّبِّ .

وكان يقول : خَيْشَتَى أرضٌ[6] ، وماءُ خَيْشَتَى من بِئْرِى[7] ، وبيْتى أبْرَدُ[8] ، ومُؤْنَتى أخَفّ . وأنا أفْضَلُهُمْ أيضا بِفَضْلِ الحِكْمَةِ وجَوْدَةِ الآلة[9] .

وكان طبيبا فأكْسَدَ[10] مَرَّةً ، فقال له قائل : السَّنَةُ وَبِئَةٌ[11] ، والأمراضُ فاشية . وأنتَ عالِم ، ولك صَبْر وخِدْمة ، ولك بيانٌ[12] ومَعْرِفَةٌ . فَمِنْ أين تُؤْتَى[13] فى هذا الكَساد ؟

قال : أما واحدةً[14] فإنّى عِنْدَهُمْ مُسْلِمٌ . وقد اعتقدَ القوم قبل أن أتطبَّبَ ، لا بَلْ قَبْلَ أن أخْلَق ، أنَّ المسلمين لا يُفْلِحون فى الطِّب ! واسمِىْ أَسَد ، وكان ينبغى أن يكونَ اسْمى صَلِيباً ، ومُرَايِلَ[15] ، ويُوحنَّا ، وبِيرَا . وكُنْيَتى أبو الحارِث ، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى ، وأبو زكَرِيَّا ، وأبو إبراهيم[16] . وعلىَّ رداءُ قُطْنٍ أبيضُ ، وكان ينبغى أن يكون رِدَاءَ حرير أسودَ .

(*) بهذه القصة تبدأ معظم النسخ المطبوعة الجزء الثانى من البخلاء . ولم يكن الجاحظ ـ رحمه الله ـ قد جعل كتابه هذا فى جزأين ، بل فى جزء واحد واعتقد أن الطبعات التى جعل كتابه هذا فى جزأين . كانت تريد مجرد تيسير التداول فقط لا غير ـ أما أسد بن جانى هذا لم نقف على تعريف له فى كتب التراث ولم نعرفه إلاَّ فى هذا الكتاب ونرجح أن يكون شخصية من عامة الناس أو شخصية خيالية أسماها الجاحظ بهذا الإسم .

(١) قصب مقشر : لعله يقصد به البوص .

(٢) الليط وهى قشرة القصب .

(٣) ناعمة . ملساء والبراغيث عندما تمشى على قوائم السرير المصنوع من القصب المقشر تزل أرجلها عنها . فلا تصل للنائم فوق السرير .

(٤) تمزيقها بفأس . (٥) المسحاه هى المجرفة .

(٦) وهو الخيش ويظهر من كلام الجاحظ أن الأغنياء فى العصر العباسى كانوا يستعملون مراوح من الخيش منداة بالماء . تعلق فى سقوف الحجرات .

(٧) لا ثمن له . (١٢) فصاحة وبلاغة .

(٨) بيتى أبرد من بيوت هؤلاء الذين يتخذون المراوح . (١٣) السؤال استنكارى .

(٩) يعنى إثارة الأرض وبلها . (١٤) أما واحدة : أى أولاً .

(١٠) أى كسدت سوقه . (١٥) كلمة من أصل عبرى معناها مخافة الله .

(١١) سنة وبئة : كثيرة الأمراض . (١٦) التعبير بكلمة (ابو) فى الأحوال الثلاث على سبيل الحكاية فقط .

ولَفْظِى لفظٌ عربىّ ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغةَ أهل جُندَيسابُورَ[1].

* أعاجيب الثورى :

قال الخليلُ السَّلَولىّ : أقبلَ علىَّ يوما الثَّورِىُّ ، وكان يملك خمْسمائة جَرِيب[2] ، ما بين كُرْسِىِّ الصَّدَقَة إلى نهر مُرَّة[3]. ولا يشترى إلا كلَّ غُرَّة[4] ، وكلَّ أرضٍ مشهورةٍ بكرِيم التُّرْبة[5] ، وشَرَفِ الموضِع[6] ، والغلّةِ الكثيرة . قال[7] : فأقبلَ علىّ يوما فقال لى : هل اصطبغتَ[8] بماء الزَّيْتُون قَطُّ ؟ قال : قلتُ : لا والله ! قال : أَمَا والله لو فعلتَه ما نسِيتَه ! قال : قلتُ : أجَلْ ، إنِّى والله لو فعلتهُ لما نَسِيتهُ[9] !

وكان يقول لعياله : لا تُلْقُوا نَوَى التَّمْر والرُّطَب ، وتعوَّدُوا ابتلاعَه ، وخُذُوا حُلُوقكم بتَسْوِيغه[10] ؛ فإنَّ النَّوَى يَعْقِدُ الشَّحْم فى البطن ، ويُدْفِىءُ الكُلْيتين بذلك الشَّحْم[11] ! واعتَبِرُوا ذلك بِبطُونِ الصَّفايَا وجميعِ ما يَعْتَلِفُ النَّوَى[12]! والله لو حَمَلْتُم أنْفُسكم على البَزْر والنَّوى[13]، وعلى قَضْم[14] الشَّعِير ، واعْتِلاف القَتّ[15]، لوجدتموها سريعة القَبُول ! وقد يأكل الناسُ القَتَّ قَدَّاحاً[16]، والشعيرَ فَرِيكا ، ونَوَى البُسْر[17] الأخْضَر ، ونَوَى العَجْوَةِ .

فإنّما بقيت الآن عليكم عَقَبةٌ واحدَةٌ : لو رَغِبتم فى الدَّفَإ لالتمستُم الشَّحْم[18]. وكيف لا تطلبون شيئاً يُغْنيكم عن دُخَان الوَقُود ، وعن شَنَاعة العَكَر[19]، وعن ثِقَل الغُرْم[20]؟ والشحمُ يُفَرِّحُ القلب ، ويبيِّضُ الوجه[21]. والنارُ تُسَوِّد الوجه . أنا أقِرُّ أن أبتلِع النَّوَى ، وأَعْلِفَه (النساء)[22]. ولكنِّى أقولُ ذلك بالنظر منِّى لكم .

---

(١) جند يسابور ضاحية بالأهواز .
(٢) القطعة المتميزة من الأرض .
(٣) نهر فى البصرة و (كرسى الصدقة) مكان بالبصرة .
(٤) لا يشترى إلا ، كل جيد .
(٥) تربة خصبة .
(٦) أى كريمة الموضع ، كثيرة الغلة .
(٧) الذى قال هو السلولى .
(٨) الأرجح أكله .
(٩) لكراهة طعمه .
(١٠) وامراره فى الحلق .
(١١) يطلب من أولاده ألاّ يلقوا نوى التمر ، وأن يتعودوا بلعه ؛ فالنوى يكوّن الشحم فى البطن ، ويدفىء الكليتين ! !
(١٢) أن يتخذوا بطون النوق عبرة لهم .
(١٣) لو حملتم أنفسكم على أكله .
(١٤) الإغتذاء به .
(١٥) ألقت : حب برى لا يزرعه الإنسان .
(١٦) غضاً أو رطباً .
(١٧) لتكر قبل إرطابه .
(١٨) لو رغبتم فى الدفء الحقيق لألتمستم أن تكونوا سمانا وأكلتم النوى .
(١٩) يعنى اختلاط الوقود بالضوء والهواء .
(٢٠) تأفف من شراء الوقود .
(٢١) كان بعض العلماء يظنون أن السرور ينشأ من كمال الصحة الحادثة من كثرة الشحم فى البدن ، وكانوا يتوهمون خطأً أن السمن من أسباب بياض البشرة وقد دحض العلم الحديث كل هذه الآراء .
(٢٢) فى بعض النسخ (واعلفه الشاء) واعتقد أنها أفضل .

وكان يقول : كُلُوا البَاقِلِيَّ بقُشوره . فإنَّ الباقِلِيَّ يقول : مَنْ أكَلَنى بقُشُورِى فقد أكلنى[1] ، ومن أكلنى بغير قُشورى فأنا الذى آكُلُه[2] ! فما حاجَتكُم إلى أن تِصيروا طعاما لطعامكم ، وأكْلا لما جُعِل أكلا لكم ؟

وكان يُعَيِّنُ[3] مالا عظيما . ولم يكن له وارثٌ[4] . فكان يَسْخَرُ ببعضهم ، فيقول عند الإشْهاد : قد علمتم أن لا وارِثَ لى . فإذا مُتُّ فهذا المال لفلان[5] ! فكان قوم كثيرٌ يَخْرِصُون على مُبايعته[6] لهذا .

وقد رأيتُه أنا زماناً من الدَّهْر ، ما رأيتهُ قَطُّ إلا ونَعْلُه فى يده ، أو يَمْشى طُولَ نهارِه فى نَعْل مَقْطوعةِ العَقِب ، شديدة على صاحِبها[7] !

قال : فهو ذا المَجُوسُ ، يرتَعُون البَصْرَةَ وبَغْداد وفارِسَ والأهْوازَ والدنيا كلَّها ، بنعالٍ سِنْدية[8] .

فقيل له : إنَّ المَجُوسىَّ لا يَسْتَحِلُّ فى دينه المُشْرَكة[9] ، فأنتَ لا تَجِدُه أبداً إلا حافياً ، أو لابساً نَعْلا سِنْدِيَّة . وأنت مُسْلِم ، ومالُك كثير .

قال : فَمَنْ كان مالُه كثيرا ، فلا بُدَّ له مِنْ أن يَفْتَح كِيسَه للنَّفَقات وللسُّرَّاق ؟

قالوا : فليس بين هاتين منزلة[10] ؟

قال الخَليلُ : جلس الثَّوْرىُّ إلى حَلْقة المُصْلِحين[11] فى المَسجِد . فسمِعَ رَجُلاً من مَيَاسِيرهم يقول : بَطِّنُوا كلَّ شىء لكم ، فإنَّه أبْقَى[12] . ولأمْرٍ جَعَلَ الله دارَ الآخرة باقِيةً ، ودارَ الدنيا فانِية[13] . ثم قال : ربما رأيتَ المبَطَّنةَ الواحدة تقطعُ أربعَة أقْمِصة[14] ، والعِمامةَ الواحدة تَقْطَع أربعةَ أُزُرٍ[15] ؛ ليس ذلك إلا لِتَعاوُن الطَّىِّ ، وترافُدِ الأثْناء[16] . فبطِّنُوا البَوَارِىَّ[17] ، وبَطِّنوا الحُصُر ، وبطِّنُوا البُسُطَ ، وبطِّنوا الغَدَاء بِشَرْبَةٍ باردة !

---

(١) الباقلى هو الفول .
(٢) الذى يقشرنى أسبب له الضرر .
(٣) يقرض الناس مالاً بالربا .
(٤) أعتقد أن الجاحظ قد وقع فى تناقض .
(٥) كان يسخر ويضحك على الناس .
(٦) معاملته بالاقتراض منه .
(٧) كان صاحبنا طوال عمره حافياً .
(٨) نعال خفيفة رخيصة الثمن .
(٩) سيرها الذى على ظهر القدم .
(١٠) ليس بين هاتين الحالتين مرتبة متوسطة .
(١١) المصلحون فى المسجد : هم المسجديون .
(١٢) أراد المبطن .
(١٣) لقاء الله فى الآخرة هو خير .
(١٤) الجبة المبطنة مثلاً ، تقطع أربعة أقمصة .
(١٥) (أزر) جمع (إزار) وهو الملحفة .
(١٦) تعليل لقطع العمامة الواحدة لأربعة إزار .
(١٧) مفردها بارية وهى الحصير .

قال[1] : فقال له الثَّوْرِيُّ : لم أفهمْ ممَّا قلتَ إلا هذا الحرفَ[2] وحْدَهُ !

قال الخليل : حُمَّ الثَّوْرِيُّ وحُمَّ عيالُه وخادِمُه ، فلم يقدِرُوا مع شِدَّة الحُمَّى على أكل الخبز . فربِحَ كِيلةَ[3] تلك الأيَّامِ من الدَّقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو كان مَنْزِلى سُوقَ الأهْوازِ ، أو نَطَاةَ خَيْبَر ، أو وادِيَ الجُحْفَةِ[4] ، لَرَجَوتُ أن استَفْضِلَ كلَّ سنةٍ مائةَ دينار[5] !

فكان لا يُبَالِى أن يُحَمَّ هو وأهْلُه أبداً[6] ، بعد أن يستفضِلَ كفايَتَهم من الدَّقيق !

وكان يقول : إذا رأيتُ الرجلَ يَشْتَرى الجَدْى رحِمتُه[7] ، فإن رأيتُه يشترى الدَّجاج حَقَرْتُهُ[8] ، فإن رأيتهُ يشترى الدُّرَّاجَ[9] لم أبيعْه[10] ولم أكلِّمه !

وإنَّه قال : أولُ الإصلاح ـ وهو من الواجب ـ خَصْفُ[11] النَّعْل ، واستِجادةُ الطِّرَاق[12] ، وتَشْحِيمُها[13] فى كلّ الأيام ، وعَقْدُ ذُؤَابة الشِّراكِ ، من زِىِّ النسَّاك[14] ، لكيلا يَطأَ عليه إنسانٌ فيقطَعَه ، ومن الإصلاحِ الواجبِ قَلْبُ خرْقَة القَلَنْسُوَة[15] إذا اتَّسَخَتْ ، وغَسْلُها من اتِّساخِها بعد القَلْب . واجْعَلْهَا حِبَرَةً ، فإنَّها ممَّا له مَرْجُوع[16] !

ومن ذلك[17] اتِّخاذُ قميصِ الصَّيْفِ جُبَّةً فى الشِّتاء ، واتِّخاذُ الشَّاةِ اللَّبُونِ إذا كان عندك حِمارٌ . واتِّخاذُ الحمارِ الجامِعِ خَيْرٌ من غَلَّة ألْفِ دِينار[18] : لأنَّه لِرَحْلِك[19] ، وبه يُدْرَكُ البعيدُ من حَوَائِجك ، وعليه يُطحَن[20] ، فتستَفْضِلُ عليه ما يَرْبَحُه عليك الطحّانُ[21] . ويُنْقَلُ عليه حوائِجهُ[22] وحوائجك ، حتّى الحطبُ . ويُستَقَى عليه الماءُ . وهذه كلُّها مُؤَنٌ إذا اجتمعتْ كانتْ فى السَّنَة مالا كثيرا .

---

(١) الذى قال هو السلولى .
(٢) أنه وقع من نفسه ، وصادف قبولاً .
(٣) الطعام يكيله .
(٤) وخيبر : على بعد من المدينة . ونطاة خيبر : حض بها ، والجحفة قرية كبيرة على طريق المدينة .
(٥) جوت أن استفضل كل سنة مائة دينار .
(١٢) الطراق جلد النعل .
(٦) لأن الحمى لا تفارق البلاد .
(١٣) أى تشحيمها يوميا .
(٧) أى رققت له ، وأشفقت عليه .
(١٤) كانوا يعقدون هذه الذؤابة خشية تلوثها .
(٨) حقره لأن أكل الدجاج ترف لا يليق بالعقلاء .
(١٥) كانوا يجعلون فى القلنسوة خرقة لتقيها العرق .
(٩) يظهر أن الدارج كان من الطير الغالى .
(١٦) ارجع إليها بالاستعمال مراراً .
(١٠) أى لم أعامله .
(٧ من الإصلاح .
(١١) أى رقعه كما يرقع الثوب .
(١٨) يريد أنك إذا كان عندك حمار واتخذت شاة معه ، فإن الشاة تأكل من فضلات علفه ، فيكفيها علف واحد ، وتربح لبن الشاة ، أى الجامع لمنافع الحمير .
(١٩) ركوبك .
(٢١) ما يربحه عليك الطحان .
(٢٠) تدور به الطاحونة .
(٢٢) ما يحتاج إليه الحمار من علف وغيره .

ثم قال : أشْهَدُ إنَّ الرِّفْق يُمْن[1] . وإنَّ الخُرْقَ شُؤْم[2] .

واشتريْتُ مُلاَءَة مَذَارِيَّة[3] . فلبِسْتُها ما شاء اللهُ رِداءً ومِلْحَفَةً . ثم احتجتُ إلى طَيْلَسَانٍ[4] ، فَقَطعتُها[5] ـ يَعْلمُ الله ! ـ فلبستُه ما شاء الله . ثم احتجْتُ إلى جُبَّة فجَعلتُه ـ يَعْلَمُ الله ! ـ ظِهارةَ[6] جُبَّة مَحْشُوَّة ، فلبستُها ما شاء الله . ثم أخرجتُ ما كان فيها من الصحيح ، فجعلتهُ مَخَادَّ[7] ، وجعلتُ قُطْنَها للقَنَادِيل[8] . ثم جعلتُ ما دُونَ خِرَق المخادِّ للقلانِس[9] . ثم عَمَدْتُ إلى أصَحِّ ما بَقِى ، فبعتهُ مِنْ أصحاب الصِّينِيَّات والصَّلاَحِيَّات[10] . وجعلتُ السُّقَاطاتِ[11] ، وما قد صار كالخُيُوط وكالقطن المَنْدُوفِ ، صَمَائِمَ[12] لرءوس القَوَارِير !

وقد رأيته ، وسمعتُ منه فى البخل كلاماً كثيراً . وكان من البَصْرِيِّين . يَنْزِل فى بَغْدَادَ مَسْجِدَ ابن رَغْبَانَ[13] . ولم أر شيخاً ذا ثَرْوة اجتمع عنده وإليه من البُخَلاء ما اجتمع له[14] : منهم إسماعيلُ بنُ غَزْوانَ ، وجَعْفرُ بنُ سَعِيد[15] ، وخَاقَانُ بنُ صُبَيْح[16] ، وأبو يعقوبَ والأعْوَرُ ، وعبدُ الله العَرُوضِىُّ[17] ، والحِزامىُّ عبدُ الله بنُ كاسِب .

وأبو عبدِ الرحمنِ[18] هذا شديدُ البُخْل ، شَديدُ العارِضة[19] ، عَضْبُ اللسان[20] . وكان يَحْتَجُّ للبُخل[21] ، ويُوصِى به ، ويَدْعُو إليه . وما علمتُ أنّ أحداً جرَّدَ فى ذلك كتاباً إلا سَهْلَ بنَ هارون[22] .

وأبو عَبْد الرحمن هذا هو الذى قال لابنه : أىْ بُنَىَّ ، إنّ إنْفاقَ القَرَاريط[23] يفتحُ عليك

---

(١) أحلف ، والرفق عكس العنف . واليمن هو البركة .
(٢) الخرق ضد الرفق ، والشؤم ضد اليمن .
(٣) المذار بلدة عراقية .
(٤) الطيلسان نوع من الكساء الفارسى .
(٥) فصلتها .
(٦) والظهارة : خلاف البطانة .
(٧) مخدة سميت بذلك لأنها توضع تحت الخد .
(٨) فتائل للقناديل .
(٩) ما دونها فى المتانة ، والقلانس جمع مفردها قلنسوة .
(١٠) بعته ممن يتجرون فى الأوانى الصينية ، وفى الصلاحيات ، وهى صحاف من الفخار .
(١١) أى ما سقط من الشىء .
(١٢) صمائم جمع مفردها صمام وهى السداد .
(١٣) حى لأهل البصرة فى بغداد .
(١٤) يريد بالاجتماع إليه حضور مجلسه للإستماع إلى ما يلقيه من نوادره . وما اجتمع له : أى مثل القدر الذى اجتمع له .
(١٥) من أصحاب الجاحظ وقرأت له خبراً فى (البيان والتبيين) .
(١٦) قرأنا خبره فى حكاية (المسرجة ذات العود والخيط) شاعر عباسى . وكان متصلاً بمحمد بن منصوربن زياد . كاتب البرامكة وقد مدحه ورثاه بعد وفاته .
(١٧) سبق وعرفنا به .
(١٨) أبو عبد الرحمن هذا الشديد البخل كتبته الثورى كما قدمنا .
(١٩) هى قوة الكلام .
(٢٠) هو القاطع . واللسان العضب هو الذليق .
(٢١) يدافع عنه ويأتى بالحجج .
(٢٢) يقصد بالكتاب رسالته المشهورة ، وقيل : إن له كتاباً آخر فى البخل كما ذكر الزركلى فى أعلامه . وجرد : وضع .
(٢٣) لم يكن له وارث . اللهم إلا إذا ولد هذا الولد بعد ذلك .

أبوابَ الدَّوانيق [1] ، وإنفاقَ الدوانيق ، يفتح عليك أبوابَ الدراهِم [2] ، وإنفاقَ الدراهم ، يَفْتَحُ عليك أبواب الدنانير ، والعَشَراتُ تفتح عليك أبوابَ المِئِينَ ، والمِئُونَ تفتحُ عليك أبوابَ الألوف ، حتّى يأتِيَ ذلك على الفَرْع والأَصْل ، ويَطْمِسَ على العَيْن والأثَرِ [3] ، ويحتمِلَ [4] القليلَ والكثير !

أيْ بُنَيَّ ، إنَّما صار تأويلُ الدِّرهم : (دارَ الهمِّ) [5] ، وتأويلُ الدينار : (يُدْنِي إلى النَّار) . الدرهمُ إذا خَرَجَ إلى غَيْرِ خَلَفٍ ، وإلى غَيْرِ بَدَلٍ ، دارَ الهَمُّ على دوانِق مُخْرَجَة [6] . وقيل : إنَّ الدينار يُدْنِي إلى النار ، لأنَّه إذا أنفقتَه فى غير خَلَف ، وأخْرِجَ إلى غير بَدَل ، بقِيتَ مُخْفِقاً [7] مُعْدِماً ، وفقيراً مُبْلَطاً [8] . فيخرجُ الخارجُ [9] ، وتدْعُو الضَّرورة [10] إلى المَكَاسب الرديَّة [11] ، والطُّعِمَ [12] الخبيثة . والخبيثُ من الكَسْبِ يُسْقِطُ العدالة [13] ، ويَذْهَبُ بالمُرُوءَةِ ، ويُوجِبُ الحَدَّ [14] ، ويُدْخِل النَّار .

* * *

وهذا التأويلُ الذى تأوَّله للدرهم والدينار ليس له ، إنّما هذا شىء كان يتكلمُّ به عبدُ الأعلى القاصُّ [15] .

فكان عبدُ الأعلى إذا قيل له : لم سُمِّيَ الكَلْبُ قَلَطِيًّا [16] ؟ قال : لأنّه قَلَّ ولَطَيَ [17] ! وإذا قيل له : لم سُمِّيَ الكلبُ سَلُوقِيًّا [18] ؟ قال : لأنّه يَسْتَلُّ ويُلْقِى [19] ! وإذا قيل له : لم سُمِّيَ العُصْفورُ عصفورا ؟ قال : لأنّه عَصَى وفَرَّ [20] !

---

(١) مفردها دانق . وهو سدس الدرهم .
(٢) الدرهم : ستة دوانق .
(٣) أى محاه ، وعين الشىء أى ذاته ونفسه ، والأثر : ما بقى منه .
(٤) يحتمل القليل والكثير أى يذهب به .
(٥) (دار الهم) يقصد لفظها ، وكذلك (يدنى إلى النار) .
(٦) نرى أن الأصح أن يقول : (دار الهم عليه) إشارة إلى أن الدرهم فى مذهبه لا يخرج جملة .
(٧) مخفقاً أى خائباً ـ أى صار قليل المال .
(٨) لا شىء لك .
(٩) الدينار .
(١٠) وهى الأصح .
(١١) المكاسب الخبيثة .
(١٢) ردىء الكسب .
(١٣) يجعل الإنسان غير مقبول الشهادة .
(١٤) من خبيث الكسب ما يوجد الحد ، كالسرقة مثلا ، ويؤدى إلى النار .
(١٥) نقل الجاحظ هذا التأويل عن عبد الأعلى الواعظ القاص .
(١٦) هو القصير .
(١٧) صار قليلاً ، أو قصير الجثة دقيقها ، ولطى أى لزق بالأرض .
(١٨) بلدة فى اليمن .
(١٩) الاستلال انتزاع الشىء .
(٢٠) أمثال هذه التاويلات إنما يراد بها المزاح واللعب بالألفاظ .

وعبد الاعلى هذا هو الذى كان يقول فى قَصَصِه : الفقيرُ ... مِرْفَقَتُهُ سَلَبَة[1] ، وجَرْدَقَتُه فلْقة[2] ، وسَمَكته سَلْتَه[3] ، فى طيِّب له كثير[4] .

وبعضُ المُفَسِّرين يَزْعُمُ أنّ نُوحا النبىَّ عليه السلام ، إنما سُمِّىَ نُوحاً ، لأنّه كان يَنُوح على نفسه ، وأنّ آدَمَ إنّما سُمِّى آدمَ ، لأنّه حُذِىَ[5] من أديم الأرض[6] ـ وقالوا : كان لونهُ فى أدْمَته لَوْنَ الأرض[7] ـ وأنّ المَسِيحَ إنّما سُمِّىَ المسيحَ لأنّه مُسِح بِدُهْن البَرَكة . وقال بعضهم : لأنّه كان لا يقيم فى البلد الواحد . وكان كأنّه ماسحُ يمسح الأرض[8] .

* * *

ثم رَجَعَ الحديثُ إلى أعاجيب أبى عبد الرحمن :

وكان أبو عبد الرحمن يُعْجَبُ بالرءوس ، ويَحْمَدُها ويَصِفُها[9] . وكان لا يأكل اللحم إلا يومَ أضْحى[10] ، أو مِنْ بَقِيَّة أضْحِيَّته[11] ، أو يكونُ فى عُرْسٍ أو دَعْوة أو سُفْرة[12] . وكان سَمَّى الرأسَ عُرْساً ، لما يجتمع فيه من الألْوان الطَّيِّبة[13] . وكان يُسمِّيه مَرَّةً الجامِعَ ، ومرّة الكامِلَ .

وكان يقول : الرأسُ شىء واحد ، وهو ذُو ألوان عَجيبة ، وطُعُومٍ مختلفة . وكلُّ قِدْرٍ وكلُّ شِواءٍ فإنّما هو شىء واحد[14] . والرأسُ فيه الدِّماغ ، فطَعْمُ الدماغ على حِدَة[15] ، وفيه العَيْنان ، وطعمها شىء على حِدَة[16] . وفيه الشَّحْمَةُ التى بين أصل الأذُن ومُؤخِر[17] العين ، وطعمها على حِدَة . على أنّ هذه الشَّحْمَة خَاصَّةً أطيبُ مِنَ المخّ ، وأنْعَمُ من الزُّبْد ، وأدْسَمُ من السِّلاء[18] .

وفى الرأس اللسانُ ، وطَعْمُه شىء على حِدَة . وفيه الخَيْشُوم[19] ، والغُضْروف[20] الذى فى الخَيْشُوم ، وطعمها شىء على حِدَة . وفيه لحم الخَدَّيْن ، وطعمه شىء على حِدَة ـ حتى يُقَسِّم أسْقَاطَه الباقية[21] .

---

(١) مرفقته : مخدته ، وسلبه بمعنى أنه ليس لديه إلا هذا الشىء الغليظ .
(٢) الجردقة : الرغيف ، والفلقة : كسرة الخبز .
(٣) نوع حقير من السمك .
(٤) هذا الذى رويناه وقع فى جملة كلام طيب كثير له
(٥) قطع .
(٦) وجهها .
(٧) والأدمة فى الإنسان السمرة .
(٨) سمى مسيحاً ، لأنه كان يمسح الأرض ، أى يقطعها
(٩) يذكرنا ما وصف به أبو عبد الرحمن الرءوس .
(١٠) جمع أضحاه .
(٢١) أى يذهب فى تعديد أجزاء الرأس والإسقاط ما سقط من الشىء . ويطلق على الردىء منه .
(١١) شاة يضحى بها .
(١٢) طعام السفر .
(١٣) يسمى الرأس عرساً ، لما تجمع فيه .
(١٤) اللون من الطعام طبخ فى قدر . والشواء المشوى من اللحم .
(١٥) وجدناها عند ابن قتيبة فى عيون الأخبار .
(١٦) طعمها : مفرد .
(١٧) مؤخر العين هو الذى يلى الصدغ .
(١٨) السلاء : السمن .
(١٩) الخيشوم : أقصى الأنف .
(٢٠) الغضروف أو الغرضوف وهو كل عظم رخص يؤكل .

ويقـــول :

الرأس سَيِّد البَدَن : وفيه الدِّماغ ، وهو مَعْدن[1] العقل ، ومنه يتفرَّق العَصَبُ الذى فيه الحِسُّ[2] ، وبه قِوَامُ البَدَن[3] . وإنّما القلبُ بابُ العقل[4] ـ كما أنَّ النفسَ هى المُدْرِكةُ ، والعينَ هى بابُ الألوان ، والنفسَ هى السامعةُ الذَّائِقة ، وإنّما الأنفُ والأذُنُ بابان .

ولولا أنَّ العقل فى الرأس لما ذهب العقلُ من الضَّرْبة تُصِيبُه .

وفى الرأس الحواسُّ الخمس .

وكان يُنْشِدُ قَوْلَ الشاعر :

إذا ضَرَبُوا رأْسى وفى الرأس أكْثَرِى وغُودِرَ عندَ الملتقَى ثَمَّ سائِرِى[5]

وكان يقول : الناسُ لم يقولوا : هذا رأس الأمر ، وفلانٌ رأسُ الكَتِيبة[6] ، وهو رأسُ القوم ، وهم رُءُوس الناس وخَراطِيمهُم[7] وأنْفُهُم[8] ، ويَشْتَقُّوا من الرأس الرِّياسةَ ، والرئيسَ ، و (قد رأَّسَ القومَ فلان) ، إلا والرأسُ هُوَ المَثَلُ ، وهو المُقَدَّم .

وكان إذا فَرَغَ من أكل الرأس عَمَدَ إلى القِحْفِ ، وإلى الجَبِين ، فوضعه بقُرْب بيُوت النَّمْل والذَّرّ[9] . فإذا اجتمعتْ فيه أخَذه فَنَفَضَه فى طَسْتٍ[10] فيها ماء ، فلا يزالُ يُعيد ذلك فى تِلْكَ المواضع ، حتى يَقْلَعَ أصلَ النمل والذَّرِّ من داره . فإذا فرغَ من ذلك ألْقَاهُ فى الحَطَب ، ليُوقِدَ به سائِرَ الحطب[11] .

وكان إذا كان يومُ الرءوس[12] ، أَقْعدَ ابنَه معه على الخِوَان . إلا أنّ ذلك بَعْدَ تَشَرُّط[13] طويل ، وبعدَ أن يَقِفَ به على ما يُريد !

وكانَ فيما يقول له : إيَّاك ونَهَمَ الصِّبيان ، وشَرَهَ[14] الزُّرَّاع ، وأخلاقَ النوائح[15] . ودَعْ عنك

---

(١) معدن الشىء أصله .
(٢) الذى يحصل الحس بسببه .
(٣) أى يصلح به .
(٤) كأنه جواب عن سؤال نشأ من الكلام السابق ما عمل .
(٥) هذا البيت للشنفرى وهو ثابت الأوس شاعر جاهلى ينتهى نسبه إلى قبيلة الأزد ولقب بالشنفرى لضخامة شفتيه . وقيل إن الشنفرى هو الأسد أو الجمل أو الرجل النشيط والمعنى الأخير أنسب لطبيعة الشنفرى الذى ضرب به المثل فى سرعة العدو حتى لا تدركه الخيل فقيل : أعدى من الشنفرى . وهو من الشعراء الفقراء الذين عرفوا فى تاريخ الأدب « بالصعاليك » وتوفى قبل الإسلام . وهو صاحب «لامية العرب» المشهورة و « فى الرأس أكثرى » أى أكثر ما فى . و « سائرى » أى بقيتى .
(٦) الطائفة من الجيش .
(٧) سادتهم ومقدموهم .
(٨) أى أنف الناس .
(٩) الذر : صغار النمل .
(١٠) جمعها طساس وطسوت .
(١١) أى لأن هذا النوع من العظم سريع الإلتهاب .
(١٢) كان الثانية بمعنى أقبل . ويوم الرءوس أى يوم أكلها .
(١٣) تشرط أى تكلف شروط يلزمها ابنه .
(١٤) الشره : غلبة الحرص على الطعام .
(١٥) جمع مفردها نائحة ، النساء اللاتى يجتمعن فى مناحة .

خَبْطَ الملاّحِينَ[1] والفَعَلة [2] ، ونَهْشَ الأعْرَاب والمَهَنَة [3] . وكُلْ ما بين يَدَيْكَ ، فإنَّما حَقُّك الذى وَقَعَ لك ، وصار أقْرَبَ إليك [4] .

وأعلم أنَّه إذا كان فى الطعام شىء طَرِيف ، ولُقْمة كريمة ، ومُضْغة شهِيّة[5] ، فإنَّما ذلك للشَّيْخ المعظَّم ، والصَّبِىِّ المُدَلَّل[6] . ولستَ واحدا منهما . فأنت قد تأتى الدَّعَواتِ والولائم ، وتدخلُ منازلَ الإخوان ، وعَهْدُك باللَّحم قَرِيب[7] ، وإخْوانُك أشَدُّ قَرَما[8] إليه منك . وإنَّما هو رأس واحد[9] . فلا عليكَ أن تَتَجَافَى عن بَعْضٍ وتُصِيبَ بعضاً [10] وأنا بَعْدُ[11] أكْرَه لك المُوَالاةَ بين اللحم[12] ، فإنّ اللهَ يُبْغِضُ أهْلَ البيتِ اللَّحِمِين[13] .

وكان يقول : إيَّاكم وهذه المجَازِرَ ، فإنّ لها ضَراوَةً ، كضَرَاوة الخمر[14]

وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم كَمُدْمِنِ الخمر[15]

وقال الشيخُ[16] ورأى رجلا[17] يأكل اللحم ، فقال : لحمٌ يأكل لحماً[18] ! أفٌّ لهذا عَمَلا !

وذكر هَرِمُ بن قُطْبَةَ[19] اللحم ، فقال : وإنَّه لَيَقْتُلُ السِّباعَ .

وقال المُهَلَّبُ : لَحْمٌ واردٌ على غير قارِم[20] ، هذا الموتُ الأحْمر .

وقال الأوَّلُ : أهلَكَ الرجالَ الأحمران : اللحمُ والخمر . وأهلكَ النِّساءَ الأحمران : الذهبُ والزَّعْفَران[21] .

أىْ بُنىَّ ، عَوِّدْ نفسَك الأثَرَةَ[22] ، ومُجَاهَدَةَ الهَوَى والشَّهْوةِ[23] . ولا تَنْهَشْ نَهْشَ

---

(١) الملاح هو نوتى السفينة . والخبط السير على غير هدى .

(٢) الفعلة صفة غالبة على عملة الحفر .

(٣) لا تنهش اللحم كما ينهشه الحفاة .

(٤) أى ليس لك حق إلا فى ذلك .

(٥) لقمة شهية . والمضغة : قطعة لحم .

(٦) المدلل الذى يتجنى فى غير موضع تجن .

(٧) أكلته قريباً .

(٨) شدة الشهوة إلى اللحم .

(٩) أن ما على المائدة رأس واحد فقط .

(١٠) لا عليك أى لا بأس عليك ، وتتجافى تبتعد . وتصيب بعضاً : تنال بعضاً .

(١١) بعد كل ما أسديته إليك من النصح .

(١٢) الموالاة هى المتابعة .

(١٣) الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة .

(١٤) الذين يأكلون لحم الناس فى (مجازر) لها ضراوة كضراوة الخمر (١٨) أريد بها التعجب .

(١٥) أدمن على الشىء ، أى أدمن الشىء

(١٦) هو أبو عبد الرحمن .

(١٧) وقد رأى رجلاً .

(١٩) هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزارى صحابى جليل ـ كان راجح العقل . تقدم العرب فى العلم والحكم . حكم له الفاروق عمر بإصابة الرأى . ورجحان العقل .

(٢٠) لحم يأكله من لا يشتهيه .

(٢١) الذهب للحلية ، والزعفران للتطيب .

(٢٢) عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك .

(٢٣) على المائدة لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه .

الأفاعِى ، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذين[1] ، ولا تُدِم الأكْلَ إدامةَ النِّعاج ، ولا تَلْقَمْ لَقْمَ[2] الجِمال . قال أبو ذَرٍّ لمن بَذَلَ **من أصحاب رسولِ الله ﷺ** : يَخْضَمُونَ ونَقْضَم ، والمَوْعِدُ الله[3] .

إنّ الله قد فَضَّلكَ ، فَجَعلكَ إنسانا ، فلا تَجعلْ نفسكَ بَهيمةً ولا سَبُعاً . واحذرْ سُرْعة الكِظَّة[4] ، وسَرَف البِطنة . وقد قال بعضُ الحكماء : إذا كنتَ بَطِيناً[5] فَعُدَّ نَفْسَك فى الزَّمْنَى[6] .

وقال الأعشى :

* والبِطْنَةُ مِمَّـا تُسَفِّـه الأحْلاَمَـا[7]

واعلمْ أنّ الشِّبَع داعيةُ البَشَم[8] ، وأنّ البَشَم داعيةُ السَّقَم ، وأنَّ السَّقَم داعيةُ المَوْت . ومَنْ مات هذه المِيتةَ ، فقد مات مِيتةً لَئِيمة . وهو قاتِلُ نفسِه ، وقاتِلُ نَفْسِه أَلْوَمُ مِنْ قاتِل غَيْره[9] . واعْجَبْ ، إنْ أردتَ العَجَب ! وقد قال الله جلَّ ذِكْرُه : ﴿ **ولا تَقْتُلوا أنْفُسَكم** ﴾ ـ وسواءٌ قتلنَا أنْفُسَنا ، أو قَتَل بعضُنَا بَعْضاً ، كان ذلك للآية تأويلاً .

أىْ بُنىّ ، إنّ القَاتِلَ والمقتولَ فى النّار . ولو سألتَ حُذَّاقَ الأطِبَّاء لأخبروك أنّ عامَّةَ أهلِ القُبور إنّما ماتُوا[10] بالتُّخَم . واعْرِفْ خَطَأَ مَنْ قال : أكْلَةٌ ومَوْتَةٌ ! وخُذْ بقول مَنْ قال :

رُبَّ أكْلةٍ تمنع أكَلاَتٍ[11] . وقد قال الحَسَنُ[12] : يا بنَ آدم كُلْ فى ثلث بطنك ، واشربْ فى ثلث بطْنك ، ودع الثُّلُثَ للتفكُّر والتَّنفس . وقال بَكْرُ بنُ عبدِ الله المُزَنِىّ[13] : ما وجدتُ طَعْمَ العَيْش حتى استبدلتُ الخُمْصَ بالكِظَّة[14] ، وحتى لم ألْبَسْ من ثيابى ما يستخدِمنى[15] ،

---

(١) الخضم هو الأكل بجميع الفم ، والبراذين جمع برذون والبرذون من الخيل العظيم الخلقة .
(٢) اللقم سرعة الأكل .
(٣) أى ماله من الصحابة ، رضوان الله عليهم . والخضم بذل المال واعطاءه .
(٤) الكظة هى الامتلاء من الطعام .
(٥) عظيم البطن من كثرة ما يأكل .
(٦) أى صاحب العاهة الدى يدوم مرضه .
(٧) الأحلام جمع حلم وهو العقل ، وتسفه الأحلام تطيشها وهذا البيت للأعشى ميمون بن قيس البكرى
(٨) البشم : التخمة .
(٩) أحق منه بأن يلام .
(١٠) فى طبعة (أتوا) بالبناء للمجهول .
(١١) لما ينشأ عنها من الأمراض .
(١٢) العالم الجليل الحسن البصرى رضى الله عنه .
(١٣) بكر بن عبد الله المزنى من مزينة مصر . كان حسن اللباس كثير الانفاق عليه ـ وكان من أفاضل التابعين ، صالحاً تقياً وتوفى سنة ١٠٨ هـ .
(١٤) حتى اتخذت الجوع يدل الكظة أى الامتلاء والتخمة .
(١٥) أى يجعلنى محافظاً عليه .

وحتى لم آكلْ إلا مالا أَغْسِل يَدَىَّ منه[1] .

يا بُنَىّ ، والله ما أدَّى حقَّ الرُّكوع ، ولا وَظِيفَةَ السجود ذو كِظَّة ، ولا خَشَعَ لله ذو بِطْنة[2] . والصَّوْمُ مَصَحَّة ، والوَجَبات عَيْشُ الصالحين[3] .

ثم قال : لأمرٍ ما طالت أعمارُ الهِنْد[4] ، وصحَّتْ أبدانُ الأعْراب . لله درّ الحارِث ابن كَلَدَة[5] ، حين زَعَم أنّ الدواءَ هو الأَزْمُ ، وأنّ الداءَ هو إدخالُ الطعام فى أَثَرِ الطعام !

أى بُنىّ لِمَ صَفَتْ أذْهانُ العَرَب ؟ ولِمَ صَدَقَتْ أحْسَاسُ الأعْراب[6] ؟ ولم صَحَّت أبدان الرُّهْبان ، مَعَ الإقامة فى الصَّوامِع ؟ وحتى لم تعرف النِّفْرِسَ[7] ، ولا وِجَعَ المفاصل ، ولا الأَوْرَامَ ، إلا لقلّة الرِّزْق من الطَّعام ، وخِفَّة الزاد ، والتَّبلُّغِ باليسير .

أىْ بُنَىَّ ، إنّ نَسِيمَ الدنيا ورَوْحَ الحياة[8] أفْضَلُ مِنْ أن تَبِيتَ كَظِيظاً ، وأن تكون لِقِصَر العُمْر حَلِيفا . وكيفَ لا ترغبُ فى تَدْبير يجمع لك صِحَّة البدن ، وذكاء الذِّهن ، وصلاحَ المِعَى ، وكثرةَ المال ، والقُرْبَ من عَيْش الملائكة[9] ؟

أى بُنَىّ ، لِمَ صَار الضَّبُّ أطْوَلَ شىءٍ عُمْراً إلا لأنّه إنّما يَعيش بالنَّسِيم[10] ؟ ولِمَ زَعَمَ[11] الرَّسولُ ﷺ أنّ الصوم وجَاءٌ[12] إلاّ لِيجعلَ الجوعَ حِجَازاً دونَ الشَّهوات .

افهمْ تأديبَ الله[13] ، فإنّه لم يَقْصِدْ به إلاَّ إلى مِثْلِك[14]

أىْ بُنَىّ ، قد بلغتُ تِسْعينَ عاماً ما نَقَصَ لى سِنٌّ[15] ، ولا تحرَّك لى عَظْم[16] ، ولا انتشرَ[17]

---

(١) المأكولات غير ذات الدسم .
(٢) الخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التعب والتخمة .
(٣) الوجبات مفردها وجبة ، ويراد بالصالحين الزهاد ، وذلك ليتجردوا لعبادتهم .
(٤) أعمار أهلها أو جيلهم .
(٥) طبيب عربى تلقى علوم الطب الفارسى واشتهر فيه ، ونال به مالاً وأدرك الإسلام .
(٦) الإحساس هو الشعور بالشىء وصدق الشعور صحته وسلامته .
(٧) ورم يحدث فى مفاصل القدم من كثرة أكل اللحم ويسمى داء الملوك .
(٨) راحتها .
(٩) أى القرب من حياتهم ، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون .
(١٠) خرافة قديمة أثبت العلم الحديث بطلانها .
(١١) القول يكون حقاً أو باطلاً .
(١٢) مانع للشهوات .
(١٣) عن لسان نبيه .
(١٤) إلى الشباب المسرفين .
(١٥) ما نقص أو نغض بمعنى اضطراب وتحرك (١٦) التحرك الإلتواء . (١٧) انتفخ .

لى عَصَبٌ ، ولا عرفتُ دَنِينَ أُذُنٍ[1] ، ولا سَيَلانَ عَيْنٍ[2] ، ولا سَلَسَ بَوْل[3] ! ما لذلك عِلّةٌ إلا التَّخْفِيفَ من الزَّاد .

فإنْ كنتَ تُحِبُّ الحياةَ ، فهذه سبيل الحياةِ ، وإنْ كُنتَ تُحِبُّ الموتَ ، فلا يُبْعِدُ الله إلا مَنْ ظَلَم[4] .

هذه كانت وَصِيَّته فى يوم الرُّءوس وَحْدَه ! فلمْ يكُنْ لِعياله إلا التَّقَمُّمُ[5] ومَصُّ العَظْم !

وكان لا يشتَرى الرأسَ إلاّ فى زيادة الشَّهر[6] ، لِمَكَانِ زيادةِ الدِّماغ[7] وكان لا يشترى إلا رأسَ فَتِىّ ، لِوَقارَةِ[8] الدِّماغ ؛ لأن دِماغَ الفَتِىِّ أوْفَرُ ، ويكون مُخّه أنْقَصَ[9] ، ومُخُّ المُسِنِّ أوْفَر ، ودماغَه أنْقَص .

ويزعمون أنّ للأهِلَّة والمِحَاقِ فى الأدْمِغة والدِّماء عملاً معروفاً[10]، وبينها فى الربيع والخَرِيف فَضْلاً بَيِّنًا .

وتزعُمُ الأعراب والعرب[11] أنَّ النُّطْفَة إذا وقعتْ فى الرَّحِم فى أوَّل الهِلال ، خرجَ الولدُ قَوِيًّا ضَخْمًا ، وإذا كان فى المِحَاق خَرَج ضئيلا شَخْتًا[12]

وأنشدَ قَوْلُ الشاعر :

لَقِحَتْ فى الهلال عن قُبُل الطُّهْـ ـرِ وقد لاح للصَّباح بَشِيرُ[13]
ثم نَمَّى ولم تُرَضِّع فَلُوًّا وَرَضَاعُ المُحِجِّ عَيْبٌ كبيرُ[14]

وكان أَبُو عبد الرحمٰن يَشترِى ذلك الرأسَ من جميع رءَّاسى بَغْدَادَ ، إلاَّ منْ رءَّاسى مسْجد

(١) نحو هذا الصوت فى الأذن من الكبر صوت الذباب والنحل والزنابير .
(٢) تسيل الدموع من العين وتضعف مع كبر السن .
(٣) استرسال البول وعدم استمساكه .
(٤) أى إن كنت تحب الموت فأنت هالك ، لأنك ظالم لنفسك والله لا يهلك إلاّ من ظلم .
(٥) تتبع القامات أى الكناسات أى أنهم يتقممون ما على المائدة من الفضلات والعظام .
(٦) فى إبان ازدياد الهلال .
(٧) أى لوجود زيادة الدماغ وحصولها فى زيادة الشهر .
(٨) أى زاد وكثر .
(٩) ما فى داخل العظام من الودك والودك هو الدهن وانقص أى من مخ المسن .
(١٠) الذين يزعمون الأطباء أو المنجمون أو العرب .
(١١) الأعراب هم البدو ، والعرب من استوطنوا الريف والمدن والقرى .
(١٢) شختاً أى دقيقاً ضامراً ، لا عن هزال ، بل خلقه .
(١٣) لقحت : حملت ، فى الهلال أى ليلة من لياليه ، وعن قبل الطهر : فى أول طهرها من الحيض .
(١٤) نما بمعنى زاد وعظم . القلو هو المهر او الجحش إذا فطما أو بلغا سنة ـ والمحج هو البطن من الحمل .

ابنِ رَغْبَانَ[1] . وكان لا يشتريه إلاَّ يَوْمَ سَبْت . واختلط عليه الأمرُ فيما بَيْنَ الشتاء والصيف . فكان مَرَّةً يشتريه فى هذا الزمان ، ومَرَّةً يشتريه فى هذا الزّمان .

وأَمَّا زُهْدُه فى رُءُوس مَسْجد ابن رَغْبَانَ ، فإنّ البَصْرِيِّين يختارون لَحْمَ الماعِزِ الخَصِيِّ على الضأن كلِّه[2] . ورُءُوسُ الضأن أشْحَمُ وألْحَمُ ، وأَرْخَصُ رُخْصًا وأطْيب . ورأسُ التَّيْس[3] أكثر لحماً من رأس الخَصِيِّ ؛ لأنَّ الخَصِيَّ من المَاعِزِ يَعْرَقُ جلْدهُ[4] ، ويقِلُّ لحم رأسه . ولا يبلغُ جِلْدُهُ ، (وإنْ كان ماعزاً)[5] ، فى الثمن ، عُشْرَ ما يبلغُ جِلْدُ التَّيْس ، ولا يكون رأسه إلاّ دُوناً[6] . ولذلك تخطَّاه إلى غيره .

وأمَّا اختيارُه شِرَاءَ الرءوس يوم السبت ، فإنَّ القصَّابين يذْبَحُون يومَ الجمعة أكْثَرَ[7] ، فتكثُرُ الرءوسُ يومَ السبت ، على قدر الفَضْل فيما يَذْبحون ؛ ولأنَّ العوامَّ والتُّجَّار والصُّنَّاعَ لا يقومون[8] إلى أكل الرءوس يومَ السبت ، مع قُرْب عَهْدِهم بأَكْلِ اللَّحْمِ يومَ الجمعة ؛ ولأنّ عامَّتهم قد بقيت عِنْدَهُ فَضْلةٌ ، فهى تَمْنَعه من الشَّهْوة[9] ؛ ولأنَّ الناس لا يكادون يَجْمَعُونَ على خِوَانٍ واحدٍ بَيْنَ الرُّءوس واللحم[10] .

وأما اختِلاطُ التَّدْبيرِ عليه فى فَرْق ما بَيْنَ الشتاءِ والصيف[11] ، فوَجْهُ ذلك أنَّ العِلَلَ كانت تَتَصَوَّرُ له[12] ، وتعرِضُ له الدَّواعى على قَدْرِ قَرَمِه ، وَحَرَكة شَهْوته ، صيْفاً وافَقَ ذلك[13] أم شِتاء .

فإن اشتراه فى الصيف ، فلأنَّ اللحم فى الصيف أَرْخَصُ[14] . والرءوسُ تابعة للّحم ؛ ولأنَّ الناس فى الشتاء لها آكَلُ ، وهم لها فى القَيْظ أتركُ . فكان يختارُ الرُّخْص على حُسْن المَوْقِع

فإذا قويتْ دواعيها فى الشتاء قال : رأسٌ واحد شَتْوِىٌّ كرأسين صَيْفِيَّيْنِ ! لأن المعلُوفةَ غَيْرُ

---

(١) الحى الذى كان يسكنه ابو عبد الرحمن وهو حى البصريين .
(٢) أجمل عندهم وأفضل وأبو عبد الرحمن لا يحب رؤوس المعز .
(٣) الفحل أو ذكر المعز .
(٤) يظهر من فرط السمنة .
(٥) نرى أن هذه الجملة حشواً من النساخ .
(٦) رديئا خسيسا .
(٧) أى ذبحاً أكثر من سائر أيام الأسبوع .
(٨) لا ينهضون .
(٩) بقيت ليوم السبت من يوم الجمعة . ومن الشهوة إلى الرءوس .
(١٠) لهذه الأسباب كان أبو عبد الرحمن يختار شراء الرءوس يوم السبت .
(١١) فى علة إيثار أحدهما على الآخر بشراء الرءوس .
(١٢) أى فتوجهه وتفسيره . والعلل الأسباب الحافزة لشراء الرأس . وتتصور له بمعنى تتمثل له .
(١٣) الإشارة إلى تصور العلل وعروض الدواعى . على قدر ... إلخ .
(١٤) أى لانصراف الناس عن الأكثار من أكل اللحم فيه .

الرّاعية . وما أكلَ الكُسْبَ فى الحَبْسِ مُوثَقًا ، غيرُ ما أَكَلَ الحشيشَ فى الصحراء مطلقا .

وكان على ثِقَة أنّه سيأتى عليه فى الشِّتاء ، مع صحَّته وبُدْنه[1] ، وفى شَكٍّ من استبقائه فى الصيف . ولنُقْصانِ شَهَواتِ الناس للرءوس فى الصيف ، كان يخاف جَرِيرَةَ تلك البَقِيةِ[2] ، وجِنَايةَ تلك الفَضْلة . وكان يقول : إنْ أكلتُها بعد الشِّبَع لم آمن العطَب ، وإن تركتها لهم فى الصيف ولم يعرفوا العلَّة ، طلبُوا ذلك منِّى فى الشتاء .

حدّثنى المَكِّىُّ قال : كنتُ يوما عند العَنْبَرِىِّ ، إذ جاءتْ جاريةُ أمِّه ومعها كوزٌ فارغ . فقالت : قالت أمُّك : بَلَغَنى أنَّ عندك مُزَمَّلَةَ قد[3] ويومُنا يومٌ حارّ . فابعَثْ إلىَّ بشَرْبة منها فى هذا الكوز .

قال : كَذَبْتِ ! أُمِّى أعقلُ مِنْ أن تَبْعَثَ بكُوز فارغ ، ونَرُدُّه ملآنَ ! اذْهبى فاملئيه من ماء حُبِّكم[4] ، وفَرِّغِيه فى حُبِّنَا . ثم املئِيه من ماء مُزَمَّلَتِنَا ، حتى يكون شىءٌ بشىء !

قال المكِّىُّ : هذا هو يُريد أن تدفع جَوْهراً بجوهر ، وعَرَضا بعَرَض[5] ، حتى لا تَرْبَحَ أمُّه إلا صَرْفَ ما بين العَرَضين[6] ، الذى هو البَرْدُ والحرُّ . فأما عدد الجواهِرِ والأَعْرَاض فَمِثْلاً بِمِثْل .

وقال المَكِّىُّ : دخلتُ عليه يوما ، وإذا عِنْدَه جُلَّةُ[7] تَمْر ، وإذا ظِئْرُه جالسةٌ قُبَالَتَه . فلمّا أكل تَمْرةً رَمَى بِنَوَاتها إليها ، فأخذتها فمصَّتها ساعة ثم عَزَلَتْها .

فقلت للمكِّى : أكان يَدَعُ على النَّواة من جسم التَّمر شيئا ؟

قال : والله لقد رأيتها لاكتْ نواةً مرةً بعد أن مصَّتها ، فصاح بها صَيْحةً لو كانت قتلتْ قتيلا ما كان عنده أكْثَرُ من ذلك ! وما كانت إلاَّ فى أن تَنَاوَلَ الأعْرَاضَ ، وتُسَلِّمَ إليه الجَوْهَرَ . وكانت تأخُذ حلاوة النَّواة ، وتُودِعُها نَدْوَةَ[8] الرِّيق .

* قصة أبى قُطْبَةَ :

قال الخليل : كان أبو قُطْبَةَ يَسْتَغِلُّ ثلاثة آلاف دينار ، وكان مِنَ البخل يُؤخِّر تَنْقِية بَالُوعَته إلى يوم المطر الشديد ، وسَيْلِ المَتَاعِب[9] ، ليكْتَرِىَ رجلا واحدا فقط ، يُخْرِجُ ما فيها ويَصُبُّه فى

---

(١) البدن : السمن ، وبدين : سمين . والضمير يرجع إلى الرأس .
(٢) أضرار بقية الرأس . (٣) إناء يبرد فيه الماء . (٤) الحب : الجرة الكبيرة (شبه الزير) .
(٥) الجوهر فى اصطلاح الفلاسفة : خلاف العرض . فالماء مثلاً مجردا عن صفاته ، جوهر ، وما يعرض له من صفات عرض .
(٦) ما زاد من البرودة فى مزملته على حرارة جرتها . (٣) وعاء من خوص .
(٧) الظئر : المرضعة ، يحتمل أنها كانت مرضعة صغيرة أو مرضعة أولاده .
(٨) الندوة من ندى بمعنى ابتل . (٩) جمع مشعب ، وهو مجرى ماء المطر .

الطريق . فيجترفُه السيل . ويؤدِّيه إلى القَنَاة ! وكان بين موضع بئره[1] والصَّبِّ قَدْرُ مائتى ذِراع . فكان لمكَانِ[2] زيادةِ دِرْهمين[3] . يحتمل الانتظارَ شهراً أو شهرين . وإنْ هو جَرَى فى الطريق . وأوذِى به الناس !

وقال : ونَظَرَ يوما إلى الكسَّاحين . وهو معنا جالسٌ فى رجالٍ من قُرَيْش . وهم يُخْرِجون ما فى بَالُوعته ، ويَرْمُونَ به فى الطريق . وسَيْلُ المثاعب يحتمله . فقال : أليس البَطُّ والجِذَاءُ والدَّجاجُ والفِراخُ والدُّرَّاجُ[4] . وخُبْزُ الشَّعِيرِ والصِّحْنَاءُ[5] والكُرَّاث والجُوَافُ[6] جميعا . يصيرُ إلى ما تَرَوْن ؟ فلِمَ يُغَالَى بشىء يصير هو والرَّخِيصُ فى مَعْنىً واحد ؟[7]

قال : وهم ثلاثة إخْوة : أبو قُطْبَةَ والطِّيلُ ويابِى . مِنْ وَلَدِ عتَّابِ بن أَسِيد ـ وأحدُ منهم كان يحجّ عن حَمْزَةَ . ويقول : استُشْهِدَ قبل أن يَحُجَّ . والآخَرُ كان يُضَحِّى عن أبى بكر وعُمَرَ ، ويقول : أخْطَأَ السُّنَّةَ فى ترك الضَّحِية . وكان الآخرُ يُفْطِر عن عائشةَ أيامَ التشريق[8] ، ويقول : غَلِطَتْ ـ رحِمهَا الله ـ فى صَوْمِها أيّامَ العيد . فَمَنْ صام عن أبيه وأُمِّه . فأنا أفْطِر عن عائشة .

* امرأة تعرف الأمور جيداً :

حدَّثنى امرأة تَعْرِف الأمور . قالت : كان فى الحىِّ مأتمٌ اجتمع فيه عجائزُ من عَجائز الحىِّ . فلمّا رأين أنَّ أهلَ المأتم قد أقَمْنَ المَنَاحة . اعتزلْنَ وتحدَّثْن . فبَيْنَا هُنَّ فى حَديثهنَّ ، إذْ ذَكَرْنَ بِرَّ الأبناء بالأمَّهات ، وإنفاقَهُمْ عليهنَّ . وذكرتْ كلُّ واحدةٍ منهنَّ ما يُوليها ابْنُها .

فقالت واحدةٌ منهنَّ ، وأمُّ فِيلَوَيْه ساكتَةٌ ـ وكانت امرأةً صالحة . وابنُها يُظْهِرُ النُّسْكَ ، ويَدِينُ بالبُخْل . وله حانوتٌ فى مَقْبَرةِ بَنى جِصْنٍ ، يبيع فيها الأسقاط[9] .

قالت : فأقبلتُ على أمِّ فِيلَوَيْهِ قالت لها : مَا لَكِ لا تَحَدَّثِينَ معنا عن ابْنِك كما يتحدَّثْنَ ؟ وكيف صنَعَ فيما بَيْنَك وبينه ؟ قالت : كان يُجْرِى علىَّ فى كلِّ أضْحىً درهما ! ثم فقالت : وقد قَطَعه أيضا ! فقالت لها المرأة : وما كان يُجْرِى عليك إلاّ دِرْهما ؟! قالت : ما كان يُجْرِى علىَّ إلاَّ ذاكِ . ولقد ربَّمَا أدْخَلَ أَضْحىً فى أضحى ! فقالت : فقلت : يا أمَّ فِيلَوَيْهِ ، وكيف يُدْخِلُ أضحىً فى أضْحىً ؟ قد يقول الناسُ : إنَّ فلانا أدخَل شهراً فى شهر . ويوما فى يوم . فأمَّا أضْحىً فى أَضْحىً . فهذا شىء لا يَشْرَكه فيه أحَدٌ ! .

* * *

(١) بالوغته . (٢) من أجل . (٣) أى لو لم ينتظر المطر الشديد ويكترى رجلاً بدرهمين .
(٤) طائر عراق أبيض فيه نقط سوداء . (٥) نوع من الأدام . (٦) نوع من السمك .
(٧) أى فلم تباع هذه الأشياء غالية مع أن هذا مصيرها ؟
(٨) الأيام الثلاثة التى بعد عيد الأضحى المبارك . (٩) الأمتعة الرخيصة .

* تمام بن جعفر :

كان تَمَّامُ بنُ جَعْفَر بخيلا على الطعام ، مُفْرِطَ البُخْل . وكان يُقْبِل على كلِّ مَنْ أَكَلَ خُبْزَه بكلِّ عِلَّة[1] ، وَيُطَالبُه بِكُلِّ طَائِلةٍ[2] ، وحتَّى ربما استخرج عليه[3] أنّه لابنٌ ، حلال[4] الدم .

وكان إنْ قال له نديمٌ له : ما فى الأرض أَحَدٌ أَمْشَى مِنِّى[5] ، ولا على ظهرها أحدٌ أقْوَى على الحُضْرِ منِّى ! قال : وما يمنعك مِنْ ذَلك ، وأنت تأكُل أكْلَ عَشَرة ؟ وهل يَحْمِلُ الرِّجْلَ إلاَّ البَطْن ؟[6] لا حَمِدَ اللهُ مَنْ يَحْمَدُك !

فإنْ قال : لا والله إنْ أقْدَرُ[7] أنْ أمشى، لأنِّى أضعف الخَلْقِ عَنْه ، وإنِّى لأنْبَهِرُ مِنْ مَشْىِ ثلاثينَ خَطْوة ! قال : وكيف تمشى وقد جعلتَ فى بطنك ما يَحْمِلُه عِشْرُون حمَّالا ! وهل يَنْطَلِقُ الناسُ إلاَّ مع خِفَّة الأكْل ؟ وَأَىُّ بَطِينٍ يَقْدِرُ على الحَرَكة ؟ وإنَّ الكَظِيظَ لَيَعْجِزُ عن الرُّكوع والسُّجود ، فكيفَ بِالمَشْىِ الكثير!

فإنْ شَكَا ضِرْسَه وقَال : ما نِمْتُ البارحَةَ مع وَجَعِه وَضَرَبانِه ، قال : عجبتُ كيف اشتكيتَ واحداً ، وكيف لم تَشْتَكِ الجميع ! وكيف بَقِيتْ إلى اليوم فى فيك حَاكَّة ! وأىُّ ضِرْس يَقْوَى على الدَّرْس والطَّحن ! والله إنَّ الأرحاء[9](السُّورِيَّة لَتكِلُّ ، وإنّ المِيجانَ[10]الغليظ لَيُتْعِبُه الدَّقُّ ! ولقد استبطأتُ لك هذه العِلّة[11]! ارفُقْ ، فإن الرِّفق يُمْن ، ولا تَخْرَقْ بنفسك ، فإنّ الخُرْق[12] شُؤْم !

وإن قال : لا والله[13]، إنِ اشتكيتُ ضِرساً لى قَطُّ ، ولا تَجَلْجَل[14] لى سِنٌّ عن مَوْضعِه منذُ عرفتُ نَفْسِى ، قال : يا مجنون ! لأن كثرة المَضْغ تشُدُّ العُمُور[15]. وتُقَوِّى الأسنان ، وتَدْبُغُ اللِّثة ، وتَغْذُو أصُولَها . وإعفاءُ الأضراس من المَضْغ يُرِيحها[16]. وإنّما الفَمُ جُزْءٌ من الإنسان . وكما أنّ الإنسان نَفْسَه إذا تحرَّكَ وعَمِلَ قَوِىَ ، وإذا طَال سُكُونُه تَفَتَّخَ واسترْخَى[17] فكذلك الأَضْراسُ . ولكنْ رِفْقاً ! فإنّ الإتْعاب يَنْقُص القُوَّة . ولكلِّ شىء مِقْدارٌ ونهاية . فهذا ضِرْسُك

---

(١) يعيبه ويذمه .
(٢) المراد بالطائلة هنا الثأر .
(٣) ادعى عليه .
(٤) يستحل سفك الدم .
(٥) الجرى .
(٦) فاعل مؤخر .
(٧) أى ما أقدر .
(٨) سن . والجمع حواك لأن السن يحك بعضه بعضاً .
(٩) جمع رحى .
(١٠) المدقة .
(١١) أى كان يجب أن تسرع قبل ذلك .
(١٢) الجهل والحمق .
(١٣) أى ما اشتكيت .
(١٤) تحرك .
(١٥) اللحم الذى بين الأسنان .
(١٦) تضعف .
(١٧) استرخى

لا تشتكيه ، بطنُك أيضاً لا تَشْتَكيه[1] ؟

فإنْ قال : والله إنْ أرْوَى [2] من الماء . وما أظنُّ أنّ فى الدنيا أَحَداً أَشْرَبَ منّى للماء ، قال : لاَ بُدَّ للتراب مِنْ ماء ، ولا بُدَّ للطين من ماء يَبِلُّهُ ويُرْوِيه [3] . أَوَلَيْسَتِ الحاجةُ على قَدْرِ كَثْرته وقِلَّته[4] ؟ والله لو شربتَ مَاءَ الفُرَاتِ ما استكثرتُه لك ، مع ما أرَى من شِدَّة أَكْلك ، وعِظَمِ لُقْمَتِك ! تَدْرِى ما قد تصنع ؟ أنتَ والله تَلْعَب ! أنتَ لستَ ترى نَفْسَكَ ! فَسَلْ عنك من يَصْدُقُكَ ، حتى تَعْلَمَ أنَّ مَاء دِجْلَةَ يَقْصُر عمَّا فى جَوْفِك !

فإنْ قال : ما شربتُ اليومَ ماءَ البَتَّةَ ، وما شربتُ أمْسِ بمقدار نِصْف رِطْل ، وما فى الأرض إنسانٌ أقلُّ شُرْبا منّى للماء . قال : لأنّك لا تَدَعُ لِشُرب الماء مَوْضِعاً ! ولأنّك تَكْنِزُ فى جوفك كنزاً لا يجد الماءُ معه مَدْخَلا ! والعجبُ لا تَتَّخِمُ ، لأنَّ مَنْ لا يشرب الماء على الخُوان لا يَدْرى مقدارَ ما أكل ، ومَنْ جاوزَ مِقْدارَ الكِفاية كان حَرِيًّا بالتُّخَمَة .

فإنْ قال : ما أنام الليلَ كلَّهُ ، وقد أهلكنى الأَرَقُ . قال : وتدعُك الكِظَّة والنَّفْخَة والقَرْقَرة أن تنام ؟ والله لو لم يكن إلا العَطشُ الذى يُنَبِّهُ الناسَ لَمَا نِمْتَ . وَمَنْ شَرِبَ كثيراً بَالَ كثيراً . ومَنْ كان الليلَ كلَّه بين شُرْب وبَوْلٍ كَيْفَ يأخُذُه النَّوم ؟

فإن قال : ما هو إلاَّ أنْ أضَعَ رأسى . فإنَّا أنَا حَجَرٌ مُلْقًى إلى الصُّبح ، قال : ذلك لأنَّ الطعام يُسَكِّر ويُخَدِّر ويُحَيِّر[5] . ويَبُلُّ الدِّماغ ، ويَبُلُّ العُرُوق[6] . ويَسْتَرْخِى عليه جميعُ البدن . ولو كانَ الحقّ[7] ، لكان ينبغى أن تَنَام الليلَ والنّهارَ !

فإن قال : أصبحتُ وأنا لا أشتهى شيئاً . قال : إيَّاك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً ، فإنَّ أكْلَ القليلِ على غَيْر شَهْوة ، أَضَرُّ من الكثير من الشَّهْوة . قالَ الخوانُ : وَيْلٌ لِى مِمَّن قال : لا أُرِيدُ [8] ! وبعْدُ ، وكيفَ تَشْتَهى الطعامَ اليومَ . وأنتَ قد أكلتَ بالأمْسِ طعامَ عَشَرة !

وكان كثيراً ما يَقُول لنُدَمَائِه : إيَّاكُمْ والأكْلَ على الخُمَار ، فإنّ دَواءَ الخُمَار[9] الشراب الخُمَارُ تُخَمَةٌ . والمُتْخَمُ إذَا أكل مات لا مَحَالَةَ .

---

(١) أداة الاستفهام محذوفة أى إذا كنت لا تشكو من ضرسك فهل كذلك . بطنك لا تشكو منه ؟

(٢) ما أروى .

(٣) أى كما أن التراب والطين يحتاجان إلى ما يرويهما فكذلك الطعام فى المعدة .

(٤) الضمير للأول المفهوم من السياق .

(٥) يذهب بالعقل والحواس .

(٦) فتسترخى .

(٧) أى لو كان الأمر حقاً . وبالتعبير العامى « لو جيت للحق » .

(٨) أى يقول لا أريد ولا اشتهى . فإذا جلس إلى المائدة فويل لهامته .

(٩) صداع الرأس من السكر .

وإيَّاكم والإكْثَارَ فى عَقِب الحِجَامة[1] والفصْدِ والحَمَّامِ . وعليكم بالتخفيف فى الصيف كلِّه . واجتنبُوا اللَّحْمَ خاصَّةً .

وكان يقول : ليس يُفسِدُ النّاسُ إلا الناس : هذا الذى يتكلّم بالكلام البارد ، وبالطُّرَف المُسْتَنكَرَةِ[2] ، لو لم يُصِبْ مَنْ يَضْحَك له ، وبعضَ من يَشْكُره ويَتضَاحَك له ـ أَوَ لَيْسَ هُوَ عِنْدَهُ إلاّ أنْ يَظْهَرَ العُجْبُ[3] به ؟ ـ لَمَا تكلَّف النَّوادِر . ألاَ أَهْلَكَ قولُ النّاس للأكُول النَّهِم ، وللرَّغِيب الشَّرِه : فلانٌ حَسَنُ الأكل ! هو الذى أهلكه ، وزادَ فى رَغْبَته ، حتى جَعَلَ ذلك صِناعةً ، وحتى ربَّما أكل ـ لمكان قَوْلهم وتَقْريبهم[4] وتعجُّبهم ـ ما لا يُطِيقه فَيُقْتلُ . فلا يزال قد هَجَمَ على قوم ، فأَكَلَ زادهم ، وتركهم بلا زاد !

فلو قالوا بَدَلَ قولهم : فلانٌ حَسَنُ الأكل : فلانٌ أقبحُ الناس أكْلا ، كان ذلك صلاحا لِفَريقين[5] .

ولا يزال البخيلُ على الطعام قد دعا الرَّغيب البَطْنِ ، واتَّخذ له الطعامَ الطيِّبَ ، لِيَنْفِىَ عن نفسه الْمَقالة[6] ، ولِيُكَذِّبَ عن نفسه تلك الظنونَ .

ولو كان شِدّةُ الضَّرْس يُعَدُّ فى المَناقب ، وَيُمْدَحُ صاحبهُ فى المجالس ، لكان الأنبياء آكَلَ الخَلْق ، ولخَصَّهمُ اللهُ ـ جلَّ ذِكرهُ ـ من الرُّغْبِ بما لم يُعْطِه أَحَداً من العالَمين . وكيف ؟ وفى مأْثور الحديث : « **إنَّ المؤمِنَ يأكلُ فى مِعى واحد ، وإنَّ المُنَافِقَ يأكل فى سَبْعة أمعاء** » .

أَوَلَسْنا قد نراهم يَشْتِمُون بالنَّهَم ، وبالرُّغْب ، وبكثرة الأكل ؛ ويمدحون بالزَّهادة ، وبقلَّة الطعام ؟ أَوَلَيْسَ قد قال النبىُّ ﷺ : مَنْ أدُلُّه على الحَسْناءِ القَتينِ ؟[7] وقد سابَّ رَجُلٌ أيُّوبَ بنَ سليمانَ بنِ عبد الملك ، فقال فى بَعْض ما يَسُبُّه : ماتت أمُّكَ بَغَراً[8] ، وأبوك بَشَماً !

وبعد ، فهل سمِعتم بأحد قَطُّ فَخَرَ بشدَّة أكلِ أبيه ، فقال : أنا ابن آكَلِ العرب ؟ بل قد رأينا أصحاب النَّبيذ والفِتْيَانَ[9] يتمَدَّحُونَ بكثرة الشُّرب ، كما يتمدَّحون بقلة الرِّزق . ولذلك قالت العربُ : قال الشاعر :

تكفيه فِلْذَةُ[10] كَبْدٍ إنْ أَلَمَّ بها ... منَ الشِّواءِ ويُرْوِى شُرْبَه الغُمَرُ[11]

---

(١) الفصد لامتصاص الدم .
(٢) البذيئة .
(٣) جملة معترضة ومعناها تساؤل عمن يفعل ذلك : أليس يهتم بأن يعجب الناس بفعله هذا ؟
(٤) أى بسبب .
(٥) الأكول وصاحب الطعام .
(٦) المراد ما يقوله الناس فى بخله .
(٧) كذ الأكل .
(٨) الشرب بلا روى .
(٩) المولعون بالشراب .
(١٠) قطعة .
(١١) القدح الصغير .

وقال .

لا يستأزَى لما فى القِدْرِ يطلبهُ[1] ولا تراه أمامَ القوم يَقْتَفِرُ[2]

وقال :

لا يغْمِزُ الساقَ من أينٍ ولا وَصَمٍ[3] ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفه[4] الصَّفَرُ

والصَّفَرُ هى حيَّات البطونِ ، إنّما تكون من الفُضول والتَّخَم ، ومن الفساد والبَشَم . وشَرِب مَرَّةً النبيذَ ، وغنَّاه المغنِّى ، فشقَّ قميصَه من الطَّرَب . فقال لِمَوْلىً له يقال له المَحْلُولُ ، وهو إلى جَنْبه : شُقَّ أيضا أنت ـ ويْلَكَ ـ قميصَك ! ـ والمحلول هذا من الآيات[5] ـ قال : لا والله ، لا أشُقُّه ، وليس لى غيْره . قال : فشُقَّه وأنا أكْسُوك غَداً . قال : فأنا أشقه غَداً . قال : أنا ما أَصْنَعُ بشَقِّكَ له غَداً ؟ قال : وأنا ما أرجُو من شَقِّه الساعةَ ؟

فلم أسمع بإنسان قَطُّ يُقَايِسُ[6] ويُنَاظِرُ فى الوقت الذى إنّما يُشَقُّ فيه القَمِيصُ مِنْ غَلَبَة الطَّرَب ، غيرِه وغيْرِ مَوْلاه مَحْلُولٍ .

* علّى الأعمى :

دخلَ علىٌّ الأعْمَى على يوسفَ بنِ كلّ خَيْر ، وقد تغدّى . فقال : يا جارية ، هاتى لأبى الحَسَن غَدَاءَه . قالت : لم يبق عندنا شىء . قال : هاتى ـ وَيْلَكِ ! ـ ما كان[7] ، فليس من أبى الحَسَن حِشْمةٌ[8] !

ولم يشُكَّ علىٌّ أنّه سَيُؤْتَى برغيف مُلَطَّخ[9] ، وبرُقاقة مُلَطَّخة ، وبِسُكَّرٍ ، وبَقيَّةِ مَرَقٍ ، وبِعَرْقٍ[10] ، وبِفَضْلَةِ شِوَاء ، وببقايا ما يَفْضُل فى الجَامَات[11] والسُّكُرُّجات[12] .

فجاءت بِطَبَق ليس عليه إلاَّ رغيفُ أُرْزٍ قاحِلٌ[13] ، لا شىءَ غَيْرُه .

فلمَّا وضعوا الخِوان بين يديه فأجال يَدَه فيه ، وهو أعمى ، فلم يقع إلاَّ على ذلك الرغيف ،

---

(١) تأزى : احبس ، اى لا يمكث ليأكل مافى القدر .
(٢) يتقدمهم إلى الطعام .
(٣) يغمز : يحس ، والأين : التعب ، والوصم : المرض ، أى لا يحس ساقه من التعب كما يفعل من مشى كثيرا .
(٤) الشرسوف : الغضروف المجاور للمعدة .
(٩) من آثار الطعام .
(٥) من العجائب فى البخل
(١٠) عظم لا يزال عليه قليل من اللحم .
(٦) يوازن ما وجد .
(١١) الأوانى الفضية .
(٧) ما وجد .
(١٢) جمع سكرجة : صحفة .
(٨) حياء .
(١٣) جاف .

وقد علم أنّ قوله : (ليس منه حِشْمة) لا يكون إلاَّ مع القليل . فلم يظنّ أنّ الأمر بَلَغَ ذلك . فلمّا لم يجد غيره قال : ويلكُمْ ! ولأَكْلِ هذا (بمرّه) رفعتم الْحِشْمَةَ كلَّها ؟ والكلامُ لم يقع إلَّا على هذا ؟

* حديث الغزال :

حدَّثنى محمدُ بنُ حسّان الأَسْوَد ، قال : أخبرنى زكريَّا القَطَّان ، قال : كان للغَزَّال قِطْعَةُ أرض قُدَّامَ حانُوتِى ، فأَكْرَى نِصْفَها مِنْ سَمَّاك يُسْقط عنه ما استطاع من مُؤْنةِ الكِراء[1]

قال : وكان الغزَّال أعْجُوبةً فى البُخْل . وكان يجىء من منزله ومعه رغيف فى كُمِّه . فكان أكْثَرَ دَهْرِهِ يأكُله بلا أُدْم . فإذا أعْيَا عليه الأمْرُ[2] ، أخذ من ساكِنِهِ[3] جُوَافَةً[4] بِحَبَّة[5] ، وأثْبَتَ[6] عليها فَلْسا[7] فى حسابه !

فإذا أراد أن يتغدَّى أخذ الجُوَافَةَ فمسحَهَا على وَجْه الرَّغيف ، ثم عَضَّ عليه ! وربَّما فَتَحَ بَطْنَ الجُوَافة ، فَيَطُرُّ[8] جَنْبَيْهَا وبطنَها باللُّقمة بعد اللُّقمة ! فإذا خاف أن يَنْهَكَهَا ذلك ، ويَنْضَمَّ بطنُها ، طلبَ من ذلك السَّمَّاكِ شيئا مِنْ مِلْح السمكِ ، فَخَشَا جَوْفها لِيَنْفُخَها ، ولِيُوهِم أنَّ هذا هو مِلْحُها الذى مُلِحَتْ به !

ولربّما غلبتْه شَهْوَتُه[9] فَكَدَمَ طَرَفَ أنفها ، وأخَذَ من طَرَف الأرْنَبة ما يُسِيغُ به لُقْمَته ! وكان ذلك منه لا يكون إلَّا فى آخر لُقْمَةٍ ، لِيَطيبَ فمُهُ بها ! ثم يَضَعُها فى ناحية .

فإذا اشْتَرَى منْ امرأةٍ غَزْلا أدخل تلك الجُوَافَةَ فى ثَمَن الْغَزْل ، من طريق إدخال العُرُوضِ[10] ، وحَسَبها عليها بفَلْس ، فيسترجعُ رأسَ المال ، ويَفْضُل الأُدْم .

* المقفع مع ابن جذام :

وروى أصحابنا عن عبد الله بن المُقَفَّع[11] ، قال : كان ابنُ جُذَامٍ الشَّبِّىُّ يجلس إلىَّ . وكان ربّما انصرفَ معى إلى المنزل ، فيتغدَّى معنا ، ويُقِيم إلى أن يُبْرِد .

---

(١) المعنى أنه أجر للسماك نصف قطعة الأرض التى هو قد اكتراها من شخص آخر ، وأن السماك يؤدى له أجراً مثل أجر القطعة كلها .

(٢) أى ضاق بأكل الخبز من غير أدم .

(٣) أى السماك الساكن فى أرضه .

(٤) نوع ردىء من السمك .

(٥) وحدة نقود صغيرة .

(٦) مقابلها .

(٧) الفلس ، أقل قيمة من الحبة ، فهو يغالط السماك .

(٨) المراد يأخذ بحذر وسرعة .

(٩) عض بأدنى فمه .

(١٠) جمع عرض ، وهو خلاف النقد من المال .

(١١) أى إلى أن يذهب الحر فى آخر النهار .

وكنت أعرفه بشدَّة البُخْل وكثرةِ المال . فألَحَّ عليَّ فى الاستزارة ،وصمَّمت عليه فى الامتناع . فقال : جُعِلتُ فِدَاك ! أنْتَ تظنُّ أنِّى مِمَّنْ يتكلَّفُ ، وأنت تُشْفِق عليَّ ! لا والله ! إنْ هى إلَّا كُسَيْراتٌ يابسةٌ ومِلْحٌ وماءُ الحُبِّ[1] ! فظننتُ أنَّه يريد اختلابى بتَهْوِين الأمر عليه . وقُلت : إنَّ هذا كقول الرجلِ : يا غلامِ ، أطعِمْنا كِسْرةً ، وأطعِم السائلَ خمْسَ تَمَرَات . ومَعْنَاه أضعافُ ما وقع اللَّفظُ عليه .

وما أظنُّ أنَّ أحَداً يَدْعُو مِثْلى إلى الحَرْبِيَّة[2] من البَاطِنَة[3] . ثم يأتيه بِكِسْرات ومِلْح . فلمَّا صِرْتُ عنده وقَرَّبه[4] إلىَّ ، إذْ وقفَ سائل بالباب . فقال : أطْعِمُونا مما تأكلون ، أطْعَمكم الله من طَعَام الجنَّة ! قال : بُورِك فيك ! فأعَاد الكلاَم . فأعَاد عليه مِثْلَ ذلك القَوْلِ . فأعاد عليه السائلُ ، فقال : اذهبْ ـ ويْلَك ! ـ فقد ردُّوا عليك . فقال السائل : سُبْحان الله ! ما رأيت كاليومِ أحداً يَرُدّ مِنْ لُقمة ، والطعامُ بين يديه ! قال : اذهبْ ـ ويْلك ! ـ وإلَّا خرجتُ إليكَ والله ، فدقَقْتُ ساقَيْكَ ! قال السائل : سُبْحَان الله ! يَنْهَى اللهُ أن يُنْهَر السائلُ ، وأنتْ تَدُقُّ ساقيه ! فقلتُ للسائل : اذهبْ وأرِحْ نَفْسَك ، فإنَّك لو تعرِفُ مِنْ صِدْق وَعِيدِه مِثْلَ الذى أعْرِفُ ، لما وقفتَ طَرْفَةَ عين بعد رَدِّه إيَّاكَ !

* خبر الذقنان :

وكانَ أبو يعقوب الذَّقْنَانُ يقول : ما فاتنى اللَّحْمُ مُنْذُ ملكتُ المال .

وكان إذا كان يومُ الجمعةِ اشْتَرَى لحم بَقَرٍ بِدرْهَم ، واشترى بَصَلا بدانِق ، وبَاذِنْجَاناً بدانِق ، وقَرْعَةً بدانِق . فإذا كان أيَّامُ الجَزَر فَجزرٌ بدانِق ! وطبَخَه كلَّه سِكْبَاجا[5] فأكَل وعِيالَهُ يومئذٍ خُبْزَهم بشىء مِن رأس القِدْر . وما ينقطعُ فى القِدْر من البصل والبَاذِنْجَانِ والجَزَر والقَرْع والشَّحْم واللحم . فإذا كان يومُ السبت تَرَدُوا[6] خبزَهم فى المَرَق . فإذا كان يومُ الأحَدِ أكلُوا البصَل . فإذا كان يوم الاثْنَين أكلوا الجزر . فإذا كان يوم الثُّلاَثاءِ أكلوا القَرْعَ . فإذا كان يوم الأَرْبِعَاءِ أكلوا الباذنجان . فإذا كان يومُ الخميس أكلوا اللَّحم .

فلهذا كان يقول : ما فاتنى اللحم مُنْذُ ملكتُ المال !

---

(١) بضم الحاء ، وهو الجرة الكبير .
(٢) حى ببغداد .
(٣) مجتمع الدور والأسواق .
(٤) أى قدم لى ذلك الطعام .
(٥) عرفوا « السكباج » بأنه لحم طبخ بخل .
(٦) جعله ثريداً .

* ناس من أهل الجزيرة :

قال أصحابُنا : نزلنا بناس من أهل الجَزيرة[1] ، وإذا هُمْ فى بلادٍ باردة ، وإذا حَطَبُهُم شرُّ حَطَب[2] ، وإذا الأرضُ كلُّها غابةٌ واحِدة طَرْفَاءُ[3] . فقلنا : ما فى الأرض أكْرَمُ من الطَّرْفَاء . قالوا : هو كريم ، ومن كَرَمِه نَفِرُّ . فقلنا : وما الذى تفرُّون منه ؟ قالوا : دخانُ الطرفاء يَهْضمُ الطعام ، وعيالنا كثيرٌ !

* ما عابه الناس :

وقد عابَ ناسُ أهلَ المازِح والمُدَبِّر[4] بأمور : منها أنَّ خُشْكَنَانَهم[5] من دقيق شعيرٍ ، وحَشْوَه الذى فيه من الجَوْزِ والسّكرِ ، من دَقِيق خُشْكَارٍ[6] .

وأهلُ المازِح لا يُعْرَفُون بالبُخْل . ولكنَّهم أسوأ الناس حالاً . فتقديرُهم[7] على قدْر عَيْشِهم . وإنَّا نَحْكِى عن البُخَلاء الذين جَمَعُوا بين البُخْلِ واليُسْر ، وبين خِصْبِ البلاد وعيش أهْلِ الجَدْب . فأمَّا مَنْ يُضَيِّق على نفسه لأنَّه لا يَعرفُ إلَّا الضِّيق ، فليس سبيلُه سبيلَ القَوْم .

* الكُثَيِّرى :

قال المكِّىُّ : كان لأبى عمٍّ يقال له سُلَيْمانُ الْكُثَيِّرىّ . سُمِّى بذلك لكثرة ماله . وكان يُقَرِّبُنى وأنا صَبىّ إلى أن بَلَغْتُ . ولم يَهَبْ لى مع ذلك التقريب شيئا قطُّ . وكان قد جاوزَ فى ذلك حدَّ البُخَلاء .

فدخلتُ عليه يوما ، وإذا قُدَّامَه قِطَعُ دَارَصِينىٍّ[8] لا تَسْوَى قيراطاً . فلما نَالَ حاجَتَهُ منها ، مَدَدْتُ يَدِى لآخذَ منها قِطْعةً . فلمَّا نَظَرَ إلىَّ قبضتُ يَدِى ! فقال : لا تَنْقَبِضْ وانْبَسِطْ واسْتَرْسِلْ . ولْيَحْسُنْ ظَنُّكَ ، فإنَّ حَالَك عِنْدِى على ما تُحِبُّ ! فخُذْهُ كلَّه ، فهو لك بِزَوْبَرِه[9] وبِحَذَافِيره[10] ! وهو لك جميعاً ! نفسى بذلك سَخِيَّة ! والله يعلم أنّى مَسْرور بما وصل إليك من الخير !

(١) المراد ما بين دجلة والفرات .
(٢) أى درىء كأن يكون كثير الدخان .
(٣) أى مكونة من الشجر المسمى طرفاء .
(٤) المازح والمدبر : موضعان قرب الرقة .
(٥) نوع من الكعك .
(٦) أى أن الحشو الذى يكون عادة من الجوز والسكر إنما هو من الخشكار وهو الشعير .
(٧) تضييقهم .
(٨) الدارصينى : من الأفاوية مثل القرفة .
(٩) بجمعيه .
(١٠) بأعاليه ونواحيه .

فتركتُه بين يديْه ، وقمتُ من عنده ، وجعلتُ وَجْهِى كما أنا إلى العِراق ! فما رأيته وما رآنى حتى مات .

وقال المكّىّ : سَمِعَنى سُلَيمَانُ وأنا أُنشِد شِعْرَ امرىءِ القيس :

لَـنَـا غنم نُسَوِّقُـهـا غِـزَارٌ كـأنَّ قُـرُونَ جِـلَّتِها[1] العِصِىُّ
فتملأُ بيْتَنَا أَقِطاً[2] وسَمْناً وحَسْبُك من غِنىً شِبَعٌ وَرِىُّ

قال : لو كان ذَكَرَ مع هذا شيئا من الكُسْوَة لكان جيّداً .

وهو الذى قال ليحيى بن خَالد حين نَقَبَ فى أبى قُبَيْس ، وزادَ فى داره : عَمَدْتَ إلى شَيْخ الجبال فَزَعْزَعْتَه ، وثَلْمتَ[3] فيه .

وقال حين عُوتِبَ فى قلّة الضَّحك ، وشدّة القُطُوب : إنّ الذى يَمْنعنى من الضِّحك أنَّ الإنسان أقربُ ما يكون من البَذْل ، إذا ضَحِك ، وطابتْ نَفْسُه[4] !

* حكاية النقاش :

صَحِبَنى محفوظُ النَّقَّاشُ من مَسْجد الجامع ليلا . فلمَّا صرت قُرْبَ منزله ـ وكان منزله أَقْرَبَ إلى مَسجد الجامع من منزلى ـ سألنى أَنْ أبيتَ عنده . وقال : أيْنَ تذهبُ فى هذا المَطَر والبَرْد ، ومنزلى منزلُكَ ، وأنت فى ظُلْمة ، وليس معك نار[5] ؟ وعندى لِباً[6] لم يَرَ الناسِ مِثْلَه ، وتمرٌ ناهِيكَ به جَوْدَةً لا تَصْلُحُ إلا له !

فمِلْتُ معه ، فأبطأَ ساعةً . ثم جاءنى بجَام لِبَأٍ وطَبَق تمر .

فلمّا مَدَدْتُ . قال : يا أبا عثمان ، إنَّه لِبَأ وغِلَظُهُ[7] ! وهو الليل ورُكوده ! ثم لَيْلَةُ مطَرٍ ورُطوبة . وأنت رجل قد طعنتَ فى السِّنِّ . ولم تزل تَشْكُو من الفالج طَرَفاً . وما زال الغَلِيلُ يُسْرِع إليك . وأنت فى الأصْل لستَ بصاحب عَشَاء !

فإن أكلت اللِّبَأَ ولم تُبالغ ، كنتَ لا آكِلا ولا تاركا ، وحَرَّشتَ طِباعَك . ثم قطعتَ الأكل

---

(١) جمع جليل وهو المسن .
(٢) الأقط : يتخذ من اللبن المخيض ، يطبخ حتى يتبخر ماؤه .
(٣) أى أنك لم ترع حرمته وهرمته .
(٤) أى يخشى : إن ضحك أن يميل إلى العطاء
(٥) المقصود مصباح
(٦) أول اللبن عقب الولادة .

أشْهَى ما كان إليك . وإنْ بالغتَ ، بِتْنا فى ليلة سُوءٍ من الاهتمام بأمرك ، ولم نُعِدَّ لك نبيذا ولا عَسَلا .

وإنّما قلتُ هذا الكلام لئلا تقول غداً : كانَ وكان ! والله قد وقعتُ بين نابَىْ أسَدٍ !

لأنّى لو لم أُجِئْكَ به وقد ذكرتُه لك ، قلتَ : بَخِلَ بهِ ، وبَدَا له فيه . وإن جِئتُ بهِ ولم أحَذِّرك منه ، ولم أُذَكِّرك كلَّ ما عليكَ فيه ، قلتَ : لم يُشْفق علىَّ ولم يَنْصَحْ . فقد بَرِئتُ إليكَ من الأمرين جميعاً . وإنْ شئتَ فَأَكْلَةٌ وَمَوْتَةٌ ! وإن شئتَ فبعضُ الاحتمالِ ونَوْمٌ على سلامة !

فما ضَحِكْتُ قَطُّ كضَحِكى تلك الليلةَ . ولقد أكلتُه جميعا ، فما هَضَمَه إلا الضَّحِكُ والنّشاطُ والسُّرورُ ، فيما أَظُنُّ ، ولو كان معى مَنْ يَفْهَمُ طِيبَ ما تكلَّمَ به ، لأُتِىَ علىَّ الضَّحكُ ، أو لقَضَى[1] علىَّ . ولكنَّ ضَحِكَ مَنْ كان وحْدَه لا يكون على شَطْرٍ[2] مُشَاركة الأصحاب .

* نوادر أبى القماقم :

وقال أبو القُمَاقِم : أول الإصلاح ألاَّ يُرَدَّ ما صار فى يَدِى لَك ؛ فإنْ كان ما صار فى يَدى لى فهو لى ، وإن لم يكن لى فأنا أَحَقُّ به مِمَّنْ صيَّره فى يَدِى ! ومَنْ أخرجَ من يده شيئا إلى يَدِ غَيْره من غير ضَرُورة ، فقد أباحه لمن صَيَّره إليه ! وتعريفُكَ[3] إيَّاه مِثْلُ إباحته[4]

وقالت له امرأة : ويَحْكَ يا أبا القُماقم ! إنِّى قد تزوَّجتُ زوجا نهاريّا[5] ، والساعة وقتُه . وليستْ علىّ هَيْئة[6] . فاشْتَرِ لى بهذا الرَّغيفِ اساً ، وبهذا الفَلْس دُهْنا ، فإنك تُؤجَر[7] ! فعسى أن يُلْقِىَ محبتى فى قلبه ، فيرزُقَنى على يدك شيئاً أعيش به ؛ فقد والله ساءتْ حَالى ، وبَلَغَ المجهودُ منى ـ فأخذهما ، وجعَله وجْهَه[8] !

فرأتْه بعد أيّام ، فقالتْ : سبحان الله ! أمَا رَحِمْتَنى ممَّا صنعتَ بى ! قال : وَيْحِك ! سَقَطَ والله مِنِّى الفَلْسُ ، فَمِنَ الغَمِّ أكلتُ الرَّغيفَ !

وتعشَّق واحدة ، فلم يزل يتْبَعُها ويَبْكِى بَيْنَ يَدَيْها ، حتى رَحِمْته . وكانت مُكْثِرةً ، وكان مُقِلاً . فاستَهْدَاها هَريسةً ، وقال : أنتم أحْذَقُ بها ! فلما كانَ بَعْدَ أيام تَشَهَّى عليها رُءُوساً . فلمّا

---

(١) هذه الجملة مثل التى قبلها .
(٢) معنى الشطر هنا : الجهة أو المشاكلة .
(٣) عرضه ليعرف .
(٤) لأنه معرض لأن يدعيه أى أحد .
(٥) أى يزورها فى منزلها نهارا .
(٦) لست فى منظر حسن .
(٧) تثاب .
(٨) أى جعل أخذ الرغيف والفلس منها وجهته وقصده .

كان بعد قليلٍ ، طلب منها حَيْسَةً[1] فلما كان بعد ذلك ، تشهَّى عليها طَفَيْشَلِيَّة[2] . قالت المرأة : رأيتُ عشق الناس يكون فى القلب وَفى الكبد وفى الأحشاء . وعشقَك أنت ليس يُجَاوِز معدتك !

وقال أبو الأَصْبَغ : ألحَّ أبو القُماقِم علَى قومٍ عِنْدَ الخِطْبة إليهم ، يسألُ[3] عن مال امرأةٍ ويُحصيه ، ويسألُ عنه . فقالوا : قد أخبرناك بمالِها ، فأنت أىُّ شىء مالُك ؟ قال : وما سؤالُكم عن مالى ؟ الذى لها يكفينى ويكفيها !

* * *

* بين المال والأغنياء :

سمِعتُ شيخا من مشايخ الأُبُلَّة[4] يزعمُ أنّ فقراء أهلِ البَصرةِ ، أفضلُ من فقراء أهل الأُبُلَّة . قلتُ : بأىّ شىء فضَّلْتَهم ؟ قال : هم أشدُّ تعظيما للأغنياء ، وأعْرَف بالواجب .

ووقع بين رجلين أُبُلِّيَّيْنِ كلامٌ ، فأسمع أحدُهما صاحبه كلاماً غليظاً ، فردّ عليه مثلَ كلامه . فرأيتُهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديداً ، ولم أر لذلك سببا . فقلتُ : لِمَ أنكرتم أن يقول له مثلَ ما قال ؟ قالوا : لأنّه أكثرُ منه مالاً . وإذا جوَّزنا هذا له ، جوَّزنا لفقرائنا أن يكافِئوا[5] أغنياءنا ، ففى هذا الفسادُ كلُّه !

وقال حَمْدانُ بْن صَباح : كيف صار رِياحٌ يُسمِعُنى ولا أُسْمِعُه[6] ؟ أفهو أكثرُ مالا منّى ؟ ثم سكت .

قال : ويكون الزائر من أهل البَصْرة عند الأُبُلِّىّ مقيما مطمئنا . فإذا جاء المدُّ قالوا : ما رأينا مدًّا قطُّ ارتفع ارتفاعَه . وما أطيبَ السَّيرَ فى المدِّ ! والسيرُ فى المدِّ إلى البَصْرة ، أطيبُ من السيرِ فى الجَزْر إلى الأُبُلَّة ! فلا يزالون به حتى يرَى أنَّ من الرأى أن يغتنم ذلك المدَّ بعينه !

* أحمد بن الخاركىّ :

كان أحمد بن الخاركىّ بخيلا ، وكان نَفَّاجا[7] . وهذا أغْيَظُ ما يكون . وكان يتّخذ لكلّ جُبَّة أربعةَ أزرار ، ليُرِىَ الناسَ أنّ عليه جُبَّتين ، ويشترى الأعْذاق[8] والعَراجين[9] والسَّعَف من

(١) لبن فحيص يخلط بالتمر والسمن .
(٢) طعام يعمل بالطفيشل ، وهو نوع من المرق .
(٣) تكرار (يسأل) لشدة الإلحاح .
(٤) بلد قريب من البصرة .
(٥) أى يساووا .
(٦) أى بمعنى كلاماً مؤلماً ولا أرد عليه بمثله .
(٧) مفتخراً بما ليس فيه .
(٨) جمع عذق . وهو ما يكون به البلح فى النخلة .
(٩) جمع عرجون . وهو العذق إذا يبس وأعوج .

الكلأِ[1] ؛ فإذا جاء الحمَّال إلى بابه تركه ساعةً ، يُوهِمُ الناس أنّ له من الأَرضِينَ ما يحتمل أن تكون ذلك كلُّه منها .

وكان يكترى قُدُور الخمَّارين التى تكون للنبيذ ، ثم يتحرَّى أعظمَها[2] ، ويهرُبُ من الحمّالين بالكراء ؛ كى يصيحوا بالباب : يشترون الدّاذِيَّ[3] والسَّكَرَ[4] ، ويحبِسون الحمّالين بالكِراء !

وليس فى منزله رطل دِبْس !

وسمِع قولَ الشاعر :

رأيتُ الخُبزَ عزَّ لديك حتّى ... حسِبتُ الخُبزَ فى جوِّ السحابِ
وما روّحتنا لتذُبَّ عنا ... ولكن خفتَ مَرْزِئَةَ الذُّباب[5]

فقال : ولِمَ ذَبَّ عنهم ؟ لعنه الله ! ما أعلم إلاَّ أنّه شهَّى إليهم الطعامَ ، ونظف لهم القِصَاعَ ، وفرَّغهم له ، وسخّرهم عليه ! ثم ألَا تركها تقع فى قِصاعهم ، وتسقط على آنافهم وعيونهم ! هو والله أهلٌ لما هو أعظمُ من هذا ! كم تَرَوْن من مرّة[6] قد أمرتُ الجاريةَ أن تُلْقِىَ فى القصعة الذّبابةَ والذبابتين والثلاثة ، حتى يتقزّز بعضهم ، ويكْفِىَ اللهُ شرَّه !

قال : وأمّا قوله : (رأيتُ الخبزَ عزَّ لديك حتّى) قال : فإن لم أُعِزّ هذا الشىء الذى هو قِوامُ أهل الأرض ، وأصلُ الأقواتِ ، وأميرُ الأغذيةِ ، فأىَّ شىء أعِزُّ ؟ إى واللهِ ، إنِّى أعِزّه وأعِزّه وأعِزّه ، مدى النَّفَسِ ، ما حملتْ عينى الماءَ[7] .

وبلغ من نَفْجِه مع ذلك ، ما أخبرنى به إبراهيم بنُ هانىءٍ ، قال : كنتُ عنده يوماً إذْ مرَّ به بعض الباعةِ ، فصاح الخوْخَ الخوخَ ! فقلت : وقد جاء الخوخُ بعدُ ؟ قال : نعم ، قد جاء وقد أكثرنا منه . فدعانى الغيظُ عليه إلى أن دعوتُ البيّاعَ ، وأقبلتُ على ابن الخارَكىّ ، فقلت : ويحك ! نحن لم نسمع به بعدُ ، وأنتَ قد أكثرتَ منه ! وقد تعلمُ أنَّ أصحابنا أتْرَف منك !

ثم أقبلتُ على البيّاع فقلتُ : كيف تبيع الخوخ ؟ فقال : ستّةٌ بِدرهم ، قلت : أنت ممن يشترى ستّ خَوْخَاتٍ بدرهم ، وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ؟ ثم تقولُ : وقد أكثرنا منه ، وهذا يقول : ستّة بدرهم ؟ قال : وأىُّ شىء أرخصُ منه ستّةِ أشياءَ بشىء ؟

---

(١) سوق بالبصرة .
(٢) أى يجتهد أن يكترى أكبرها .
(٣) الخمر .
(٤) بتشديد السين وفتحها : نبيذ يتخذ من التمر .
(٥) معنى البيت : ما روحتنا بالمروحة لتذب عنا الذباب ، ولكن خفت على طعامك من أن ينال منه الذباب .
(٦) تكرار لقال ، وهو يجرى فى أسلوبه .
(٧) أى ما دمت حياً .

* النفطْ لبيت الحمار !! :

كان غلامُ صالحِ بنِ عفَّان يطلبُ منه نِفْطاً لبيت الحمار[1] بالليل . فكان يعطيه كلَّ ليلةٍ ثلاثةَ أفْلُس ـ والفُلُوسُ أربعةُ طَسُّوجٍ[2] ـ ويقول : طَسّوجٌ يَفْضُل وحبّةٌ تنقُص ، وبينهما يرمى الرَّامى[3] !

وكان يقول لابنه : تُعطى صاحِبَ الحمَّام وصاحبَ المِعْبَر لكلّ واحد منهما طَسُّوجا ، وهو إذا لم يرَ معك إلّا ثلاثةَ أفلسٍ لم يردَّك ؟

* وكان الإنسان عجولاً :

قال أبو كعب : دعا موسى بن جُنَاح جماعةً من جيرانه ليفُطروا عنده فى شهر رمضان . وكنتُ فيهم . فلمّا صلّينا المغربَ ، ونجز[4] ابنُ جَناح ، أقبل علينا ثم قال : لا تَعْجَلوا ، فإنّ العجلة من الشيطان . وكيف لا تعجلون وقد قال الله جلّ ذِكره : ﴿ **وكان الإنسانُ عَجُولا** ﴾[5] . وقال : ﴿ **خُلِق الإنسانُ من عَجَل** ﴾[6] ـ اسمعوا ما أقول ، فإنّ فيما أقول حُسْنَ المُؤاكلة ، والبعدَ من الأَثَرَةِ ، والعاقبةَ الرَّشيدةَ ، والسِّيرةَ المحمودة . وإذا مدّ أحدكم يدَه إلى الماء فاستسقَى ـ وقد أتيتُم بِبَهَطَّة[7] ، أو بِجُوذابة[8] ، أو بعَصِيدة ، أو ببعض ما يجرى فى الحلق ولا يُساغ بالماء ، ولا يُحتاج فيه إلى مضغ ، وهو طعامُ يدٍ لا طعامُ يدَيْن[9] ، وليست على أهل اليد منه مؤنة وهو مما يذهب سريعا ـ فأمسكوا ، حتى يفرُغَ صاحبُكم ، فإنكم[10] تجمعون عليه خصالا : منها ، أنكم تنغِّصُون عليه بتلك السرعة ، إذا علم أنه لا يفرُغ إلّا مع فراغكم[11] . ومنها ، أنكم تَحْنُقونه[12] ولا يجدُ بُدًّا من مكافأتكم[13] ، فلعلّه أن يتسرّع إلى لُقْمة حارّة فيموتَ وأنتم ترْونه . وأدنى ذلك أن تبعثوه على الحِرص ، وعلى عِظَم اللُّقَم . ولهذا ما قال الأعرابىّ حين قيل له : لِمَ تبدأ بأكل اللحم الذى فوق الثَّريد ؟ قال : لأنّ اللحمَ ظاعنٌ ، والثريدَ مقيمٌ !

وأنا وإن كان الطعامُ طعامى فإنّى كذلك أفعلُ . فإذا رأيتم فعلى مخالِفَ قولى ، فلا طاعة لى

---

(١) لإضاءته .
(٢) أى أن أربعة فلوس تساوى طسوجاً .
(٣) يقصد أنه لو أعطاه طسوجاً لكان أكثر . ولو أعطى حبة كانت أقل . والفرق بين الطسوج والحبة شاسع .
(٤) قضى حاجته .
(٥) الإسراء : ١١ .
(٦) الأنبياء : ٣٧ .
(٧) أرز باللبن والسمن .
(٨) طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .
(٩) الذى يحتاج فيه إلى استعمال اليدين .
(١٠) أى إن لم تمسكوا عن الأكل .
(١١) أى إذا علم من يده إلى الماء ليشرب أنكم ستفرغون من الطعام مع فراغه من الشرب .
(١٢) بأن تسببوا له الغصة .
(١٣) مجازاتكم .

عليكم .

قال أبو كعب : فربّما نَسِى بعضُنا ، فمدَّ يده إلى القصعة ، وقد مدَّ يدَه صاحبُه إلى الماء ، فيقولُ له موسى : يَدَكَ يا ناسى ! ولولا شىءٌ[1] لقلت لك : يا مُتَغافِلُ !

قال : وأتانا بأُرُزَّةٍ . ولو شاء إنسان أن يعدّ حَبَّها لعدّة ، لتَفَرُّقه ولِقلّتِه . قال : فنثروا عليها ليلة من ذلك مِقْدارَ نصفِ سُكُرَّةٍ . فوقعتْ ليلتَئذٍ فى فمى قطعةٌ ، وكنت إلى جنبه ، فسمع صوتها حين مضغتُها ، فضرب يده على جنبى ، ثم قال : اجْرُش يا أبا كعب اجرشْ ! قلت : ويلك ! أما تتّقى الله ! كيف أجْرُش جزءًا لا يتجزّأ ؟ .

* قصة ابن العُقدىّ :

كان ابن العقدىّ ربّما استزار أصحابَه إلى البستان . وكنت لا أظنّهُ ممن يحتمل قلبهُ ذلك على حال . فسألتُ ذاتَ يوم بعضَ زُوّاره ، فقلت : احكِ لى أمرَكم ، قال : وتسترُ علىّ ؟ قلت : نعم ، ما دمتُ بالبَصرة .

قال : يشترى لنا أُرُزّا بقشره ، ويحملُه معه ، ليس معه شىء مما خلق اللهُ إلاّ ذلك الأَرْزُّ ! فإذا صرنا إلى أرضه ، كلّف أكّاره[2] أن يجشّه فى مِجَشَّةٍ له ، ثم ذَرّاه ، ثم غربله ، ثم جَشّ الواشَّ[3] منه . فإذا فرغ من الشراء والحمل ، ثم من الجشّ ، ثم من التذرية ، ثم من الإدارة والغربلة ، ثم من جَشّ الواشّ ، ثم من تذريته ، ثم من إدارته وغربلته ، كلّف الأكّارَ أن يطحنه على ثوره وفى رَحه . فإذا طحنه ، كلّفه أن يُغْلِى له الماءَ ، وأن يحتطبَ له . ثم يكلِّفُهُ العَجْنَ ، لأنّه بالماء الحارّ أكثر نَزَلا[4] . ثم كلّف الأكّارُ أن يخبزه .

وقبل ذلك ما قد كلّفهم أن ينصبوا له الشُّصُوص للسمك ، ويَسْكُروا[5] الدرْياجة[6] على صغار الشلابى[7] ، لا يَدْخلوا فى السواقى ، فَيُدخلوا أيديهَم فى جِحرَةِ الشلابىّ والرُّمّان[8] . فإن أصبنا من السمك شيئا جعله كبَاباً على نار الخبز تحت الطابَق[9] ، حتى لا يحتاج من الحطب إلى كثير .

فلا نزال منذ غُدْوةٍ إلى الليل فى كدّ وجوع وانتظار . ثم لا يكون عَشاؤنا إلاّ خُبْزَ أرز أسودَ منخول ــ بالشلابى .

---

(١) من الذوق .
(٢) المراد العامل فى مزرعته .
(٣) الارز الذى ينقلب من الرحا سليما فيعاد عليه الجش .
(٤) بركة وزيادة .
(٥) يسدوا .
(٦) فتحة فى النهر .
(٧)،(٨) نوعان من السمك .
(٩) إناء يطبخ فيه .

ولو قَدَرَ على غير ذلك فعل .

قلت له : فَلِمَ لا يتّخذ موضِعَ (مذارٍ) من بعض (دُقَاقِ) أرضه ، فيذرِّىَ لكم الأُرزَ ؟[1] ثم يكون الخيارُ فى يده ، إن أراد أن يعجِّل عليكم الطعامَ أطعمكم الفَرْدَ[2] ، أو إن أحبّ أن يتأنّى ليطعمكم الجوهرى[3] .

قال : والله لئن سمع هذا وعرفه ليتكلفنه . الله الله فينا ، فإنا قوم مساكين ! ! لو قدرنا على شىء لن نحتمل هذا البلاء !

* ما وقع للمكى مع إبن غزوان :

حدّثنى المَكّىّ قال : بتُّ عند إسماعيل بن غَزْوان . وإنّما بيّتنى عنده حين علم أنى تعشّيتُ عند مُوَيْسٍ ، وحملتُ معى قِرْبةَ نبيذ . فلمّا مضى من الليل أكثرُهُ ، وركبنى النومُ ، جعلتُ فِراشى البِساطَ ، ومِرْفَقَتى يدى ، وليس فى البيت إلاّ مصلىٌّ له ومِرْفقةٌ ومِخَدَّة . فأخذ المِخَدَّة فرمَى بها إلىّ ، فأبيتُها ورددتُها عليه . وأبى وأبَيْتُ . فقال : سبحانَ اللهِ ! يكون أن تتوسَّد مِرْفَقَتك ، وعندى فَضْلُ مِخَدَّة ؟ فأخذتُها فوضعتُها تحت خَدِّى ، فنعنى من النوم إنكارى للموضع[4] ، ويُبْس فِراشى .

وظنّ أنّى قد نمتُ . فجاء قليلاً قليلاً ، حتى سلّ المخدّة من تحت رأسى . فلمّا رأيتُه قد مضَى بها ضحِكتُ ، وقلتُ : قدكنتَ عن هذا غنيًّا ! قال : إنّما جئتُ لأُسوِّىَ رأسَك ! قلتُ : إنّى لم أكلّمك حتّى ولّيْتَ بها . قال : كنتُ لهذا جئتُ ، فلمّا صارت المخدّة فى يدى نسِيتُ ما جئتُ له ! والنبيذُ ـ ما علمتَ ـ واللهِ يَذْهبُ بالحِفظ[5] أجْمَعَ !

وحدّثنى الحِزامىُّ ولامكىّ والعَروضىّ . قالوا : سمعنا إسماعيلَ يقول : أَوَ ليس قد أجمعوا على أنّ البخلاء فى الجُمْلَة ، أعقلُ من الأسخياء فى الجملة ؟ ها نحن أُولاء عندكَ جماعةً ، فينا من يزعمُ الناسُ أنّه سخىّ ، وفينا من يزعمُ الناس أنّه بخيل ، فانظر أىُّ الفريقين أعقلُ ؟ هأنذَا وسهلُ بنُ هارونَ وخاقانُ بن صُبيح وجعفرُ بنُ سعيد والحِزامىّ والعَروضِىّ وأبو يعقوبَ الخُرَيْمى ، فهل معك إلا أبو إسحاق[6] ؟

وحدّثنى المكّىّ ، قال : قلت لإسماعيلَ مرّةً : لم أر أحداً قطُّ أنفق على الناس من ماله ، فلمّا احتاج

---

(١) أى لم يتخذ من مكان التذرية فتات الأرض المختلط بفتات الأرز ويذريه

(٢) المراد خبزة الأرز وحده من غير إدام .

(٣) الكامل التغذية .

(٤) عدم تعودى عليه .

(٥) المعنى : إن شرب النبيذ ـ كما تعلم ـ يذهب بالذاكرة .

(٦) اى من الفرق الذى يزعم الناس أنه سخى .

إليهم آسَوْه . قال : لوكان ما يصنعون لله رضاً ، وللحقّ موافقا ، لما جمع الله لهم الغدرَ واللؤمَ من أقطار الأرض . ولو كان هذا الإنفاقُ فى حقّه لما ابتلاهم الله ـ جلّ ذِكْره ـ من جميع خلقه .

* لعن الله النساء :

حدّثنى تمّامُ بنُ أبى نُعَيْم ، قال : كان لنا جار وكان له عُرْسٌ . فجعل طعامَه كلّه فالُوذقا [1] . فقيل له : إنّ المُؤْنة تعظُم ، قال : أحتملُ ثِقَل الغُرْم بتعجيل [2] الراحة ، لعن الله النساء ! ما أشكّ أنّ مَنْ أطاعهنّ شرٌّ منهنّ .

* من أئمة البخلاء :

وحديثٌ سمِعناه على وجه الدهرِ : زعموا أن رجلا قد بلغ فى البخل غايتَه ، وصار إماماً ، وأنّه كان إذا صار فى يده الدرهمْ ، خاطبه وناجاه ، وفدّاه [3] واستبطنه [4] .

وكان ممّا يقول له : كم من أرض قد قطعتَ ! وكم مِن كيس قد فارقتَ ! وكم من خامل رفعتَ ! ومن رفيع قد أخملت ! لك عندى ألاّ تعرَى ولا تَضْحَى ! ـ ثم يلقيه فى كيسه ، ويقول له : اسكُن على اسم الله فى مكان لا تُهانُ ولا تُذَلُّ ولا تُزْعَجُ منه ! ـ وأنّه لم يُدخل فيه درهما قطُّ فأخرجه ، وإنّ أهله ألحُّوا عليه فى شَهْوةٍ ، [5] وأكثروا عليه فى إنفاق دِرهم ، فدافعهم ، ما أمكن ذلك . ثم حمل درهما فقط . فبينا هو ذاهب إذ رأى حَوّاءَ قد أرسل على نفسه أفْعىً لِدرهم يأخذُه . فقال فى نفسه : أتْلِفُ شيئا تُبذل فيه النفسُ ، بأكلةٍ أو شَرْبة ؟ والله ما هذا إلاّ موعظةٌ لِى من الله ! فرجَع إلى أهله ، وردّ الدِّرهم إلى كيسه ـ فكان أهلُه منه فى بَلاءٍ . وكانوا يتمَنّون موْتَه والخلاصَ بالموت أو الحياة بدونه .

فلما مات وظنّوا أنهم قد استراحوا منه ، قدِم ابنه فاستولَى على ماله وداره . ثم قال : ما كان أدْمُ أبى ؟ فإنّ أكثرَ الفساد إنّما يكون فى الإدام . قالوا : كان يَأتَدِمُ بجُبنة عنده . قال : أَرُونيها . فإذا فيها خزٌّ كالجدول ، من أثر مسح اللقمة ! قال : ما هذه الحفرةُ ؟ قالوا : كان لا يقطعُ الجُبْنَ ، وإنّما كان يمسح على ظهره فيحفِرُ ، كما ترى ! قال : فبهذا أهلكنى ، وبهذا أقعدنى هذا المَقْعَدَ ! لو علمتُ ذلك ما صلّيتُ عليهِ !

قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعُها من بعيدٍ ، فأشيرُ إليها باللُّقْمة !

---

(١) حلواء تصنع من لب القمح .
(٢) يعنى أنه فعل ذلك تلبية لرغبة النساء فى الراحة .
(٣) أى قال له : جعلت فداك .
(٤) المراد أنه عرف فوائده .
(٥) اشتهاء شىء .

ولا يُعجبنى هذا الحرفُ الأخيرُ .(؛ لأن الإفراطَ لا غايةَ له . وإنَّما نحكى ما كان فى الناس ، وما يجوزُ أن يكون فيهم مثْلُهُ ، أو حُجَّةً أو طريقةً[٣] . فأمّا مثلُ هذا الحرفِ فليس مما نذكره . وأمّا سائرُ حديث هذا الرجل فإنّه من البابة[١] .

* كلام فى النبيذ :

قال ابن جُهانةَ الثَّقَفِيَّةِ : عجِبْتُ ممن يمنع النبيذَ طالِبَهُ ؛ لأنّ النبيذَ إنما يُطلب ليوم فَصْد ، أو يومِ حِجامة ، أو يوم زيارة زائر ، أو يوم أكل سمك طريّ ، أو يوم شَرْبَة دواء . ولم نر أحداً طلبه وعنده نبيذٌ ، ولا ليدّخره ويحتكرَه ، ولا ليبيعه ويعتقد منه[٢] . وهو شيءٌ يحسُن طلبُه ، وتحسُن هِبتُه ، ويحسُن موقِعُه . وهو فى الأصل كثير رخيص ، فما وجه منعه ؟ ، ما يمنعه[٣] عندى إلاَّ مَنْ لا حظَّ له فى أخلاق الكرام ! وعلى أنّى لست أَوْجَلُ[٤] ـ بما أهَبُ منه ـ على نبيذى النقصانَ ؛ لأنّى إذا احتجبْتُ عن نُدَمائى بقدْر ما أخرجتُ من نبيذى ، رجع إلىَّ نبيذى على حاله ، وكنت قد تحمّدت[٥] بما لا يضرُّنى ، فمن ترك التحمُّدَ بما لا يضُرُّه ، كان من التحمُّد بما يضرُّه أبعدَ .

فذَكَر ابنُ جُهانَة ماله من الكرم بهبة نبيذِهِ ، ولم يذكرُ ما عليه من اللؤم[٦] بِحَجْبِ نُدَمائه .

* مدين على برذون :

قال الأصمعىُّ[٧] أو غيره : حمل بعض الناس مديناً[٨] على بِرذونٍ[٩] ، فأقامه على الآرى[١٠] . فانتبه من نومه ، فوجده يعتلَفُ . ثم نام فانتبه ، فوجده يعتلف . فصاح بغلام : يا بن أمَّ ! بِعْهُ ، وإلا فهبه ، وإلا فردّه ، وإلَّا فاذبحه ! أنامُ ولا ينامُ ! يذهب بحر مالى ! ما أراد إلا استئصالى !

* البخيل وغلامه :

قال أبو الحسن المدائنىُّ : كان بالمدائن تمّارٌ ، وكان بخيلا . وكان غلامهُ إذا دخل الحانوتَ يحتال[١١] ؛ فربما احتَبَسَ . فاتّهمه بأكل التمر .

---

(١) اى من هذا النوع . (٢) يقتنى ويجمع . (٣) احتجاجهم للبخل وطرقهم فيه .
(٤) أى ولست أخاف على نبيذى النقصان بسبب ما أهب منه لاصحابى .
(٥) امتننت . (٦) اللؤم الشح أو اللوم فى نسخه .
(٧) الأصمعى هو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى . راوية العرب . والعالم اللغوى الثقة . ت ٢١٦ هـ بالبصرة التى ولد فيها .
(٨) وهبه له ليركبه . ويقصد بالمدينى رجلاً من سكان المدن .
(٩) البرذون : فرس ضخم الجسم والقوائم . غير عربى السلالة .
(١٠) ما يوضع فيه العلف لتأكله الدواب . (١١) يحتال على سرقة التمر .

فسأله يوماً فأنكر . فدعا بقطنةٍ بيضاء ، ثم قال : امضُغْها . فمضغها . فلمّا أخرجها وجد فيها حلاوةً وصُفْرة ، قال : هذا دأبُك كلّ يوم وأنا لا أعلم ! أخرج من دارى !

* الأسدى وابنُ الأكار :

وكان عندنا رجلٌ من بنى أَسَد ، إذا صعِد ابنُ الأكّار إلى نخلة ليلقُطَ له رُطبا ، ملأ فاه ماء . فسخِروا به ، وقالوا له : إنّه يشربُه ، ويأكلُ شيئا على النخلة . فإذا أراد أن ينزل بالَ فى يده ، ثم أمسكه [1] فى فيه ! (والرطبُ أهونُ على أولاد الأَكَره ، وعلى أولادِ غيرِ الأَكرة ، من أنْ يَحتَمِلَ فيه أحدٌ شَطْرَ هذا المكروهِ ولا بعضَه) [2] . قال : فكان بعدَها يملأ فاه من ماء أصفرَ أو أحمرَ أو أخضرَ ، لكى لا يقدِرَ على مِثْلِه فى رءوس النخل !

* من أخبار الداردريشى :

وحدّثنى المِصْرىُّ ، وكان جار الداردريشىِّ ، ومالُه لا يُحْصَى . قال : فانتهَرَ سائلا ذاتَ يوم وأنا عنده . ثم وقف عليه آخرُ فانتهره ، إلاّ أنّ ذلك بغيظٍ وحَنَق . قال : فأقبلتُ عليه فقلت له : ما أبغضَ إليك السؤالَ ! قال : أجَلْ ، عامّةُ من تَرَى منهم أيسرُ منى . قال : فقلتُ : ما أظنُّك أبغضتَهم لهذا . قال : كلُّ هؤلاء لو قَدَروا على دارى لهدموها ، وعلى حياتى لنزعوها ! أنا لو طاوعتهم فأعطيتُهم كما سألونى كنتُ قد صرتُ مثلهم منذ زمانٍ ! فكيف تظنُّ بغضى يكون لمن أرادنى على هذا [3] ؟

وكان أخوه شريكَه فى كلّ شىء . وكان فى البخل مثلَه . فوضع أخوه فى يوم جُمُعةٍ بين أيدينا ، ونحن على بابه ، طبقَ رُطب يساوى بالبَصْرة دانِقَيْن . فبينا نحن نأكل إذ جاء أخوه ، فلم يسلِّم ولم يتكلّم ، حتّى دخل الدارَ . فأنكرنا ذلك . وكان يُفرط فى إظهارَ البِشر ، ويجعل البِشرَ وقايةً دون ماله . وكان يعلم أنّه إن جمع بين المنع والكِبْر قُتِل .

قال : ولم نعرف علّته ، ولم يعرفها أخوه . فلمّا كان الجُمُعةُ الأخرى ، دعا أيضا أخوه بطبق رُطب . فبينا نحن نأكل ، إذ خرج من الدار ولم يسلِّم ولم يقف . فأنكرنا ذلك ، ولم ندرِ أيضا ما قصّتُهُ . فلمّا أن كان فى الجُمُعة الثالثة ، ورأى مثل ذلك ، كتب إلى أخيه :

يا أخى ! كانت الشركة بينى وبينَك حين لم يكثُرِ الوَلَدُ ، ومع الكثرة يقع الأختلافُ . ولست آمَنُ أن يخرج ولدى وولدُك إلى مكروه . وها هنا أموالٌ باسمى ولك شطرُها ، وأموال باسمك ولى شطرُها ،

(١) أمسك البول .

(٢) تعقيب من الجاحظ يعنى به أن هذا يستبعد حصوله لأن الشر كثير فى متناول أولاد الزراع وغيرهم .

(٣) لمن دفعنى إلى أن أكون مستجدياً .

وصامتٌ[1] فى منزلى ، وصامت فى منزلك ، لا نعرف فَضْلَ بعضٍ ذلك على بعض . وإن طرَقنا أمرُ الله ، ما ركَدَتِ الحرب بين هؤلاء الفِتْيَةِ ، وطال الصخَبُ بين هؤلاء النسوةِ . فالرأى أن تتقدّم اليومَ فيما يحسِم منهم هذا السَّبب .

فلمّا قرأ أخوه كتابه تعاظَمَهُ ذلك وهاله ، وقلَّب الرأىَ ظهرًا لبطن ، فلم يَزده التقليب إلاّ جهلا . فجمع وَلَده وغلُظَ عليهم ، وقال : عسى أن يكونَ أحدٌ منكم قد أخطأ بكلمة واحدة ، أو يكونَ هذا البلاءُ من جرائر النساء .

فلمّا عرَف براءةَ ساحة القوم ، تمشَّى إليه حافيا راجلا ، فقال : ما يدعوك إلى القسمة والتمييز ؟ أدْعُ صُلَحاء أهلِ المسجد الساعةَ ، حتى أشهدَهم بأنّى وكيل لك فى هذه الضِّياع ، وحوِّل كلَّ شىء فى منزلى إلى منزلك ، وجرِّب ذلك منّى الساعةَ . فإن وجدتنى أروغ وأعتلُّ فَدُونَك[2] ـ فحاجتى الآن أن تخبرَنى بذنبى . قال : مالك من ذنب ، وما من القسمة مِن بُدّ ، فأقام عنده يُناشده إلى نصف النهار . ثم أقام يومَه ذلك إلى نصف الليل يُناشدُه ، ويطلبُ إليه .

فلمّا طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجَهْدَ ، قال له : حدّثنى عن وصعك اطباق الرطب ، وبسْطِك الحُصُرَ فى السِّكَك ، وإحضارك الماءَ الباردَ ، وجمعِك الناسَ على بابى فى كل جُمُعة ! كأنّك ظننتَ أنّا كنّا عن هذه المَكْرُمة عُمْيا ! إنّك إذا أطعمتَهم اليومَ البَرْنىّ[3] ، أطعمتَهم غداً السُّكَّر[4] ، وبعد غد الهليلثا[5] . ثم يصيرُ ذلك بعد أيّام الجُمَع ، فى سائر أيّام الأسبوع . ثم يتحوّل الرطب إلى الغَداء ، ثم يؤدّى الغَداءُ إلى العَشاء . ثم تصير إلى الكِساء ، ثم الجِداء[6] ، ثم الحُمْلانِ ، ثم اصطناعِ الصنائع[7] ! والله إنّى لَأَرْثِى لبيوت الأموال ولخَراج المملكة من هذا ، فكيف بمال تاجر جَمَعه من الحبّات والقراريط والدّوانيق ، والأرباع والأنصاف ؟

قال : جُعِلْتُ فِداك ! تريد ألاّ آكُلَ رُطَبَةً أبداً ، فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى ، فلا والله لا كلّمتُهم أبدا ! قال : إيّاك أن تُخطىء مرّتين : مرّةً فى إطماعهم فيك ، ومرّة فى اكتساب عَداوتهم . أُخرُج من هذا الأمر على حساب ما دخلتَ فيه[8] ، وتَسَلَّمْ تسلَمْ[9] .

* دجاجة إلى ابن عمران :

كان أبو الهُذَيْل أهدَى إلى مُوَيْسٍ دَجاجةً . وكانت دَجاجتُه التى أهداها دون ما كان يُتَّخَذُ لمويس .

(١) المال الصامت : الذهب والفضة .
(٢) أى فإن وجدتنى أحيد عما أقول فنفذ ما عزمت عليه من القسمة .
(٣) نوع جيد من التمر .
(٤) نوع من الرطب شديد الحلاوة .
(٥) نوع أجود من التمر .
(٦) جمع جدى .
(٧) جمع صنيعة بمعنى المعروف .
(٨) أى عاد خلت فيه بالتدريج .
(٩) أى أخضع لنصيحتى تسلم .

ولكنّه بكرمه وبحسن خُلُقه أظهر التعجّبَ من سِمنَها وطيبِ لحمها . وكان يُعْرَفُ بالإمساك الشديد . فقال : وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدّجاجة ؟ قال : كانت عَجَبا من العَجَب ! فيقول : وتدرى ما جنسُها ؟ وتدرى ما سنُّها ؟ فإنّ الدجاجَة إنّما تطيبُ بالجنس والسنّ . وتدرى بأىّ شىء كنا نسمِّنها ؟ ـ فلا يزال فى هذا ، والآخَرُ يضحك ضِحكا نعرفه نحن ، ولا يعرِفه أبو الهذيل .

وكان أبو الهذيل أسلمَ الناسِ صدراً ، وأوْسعَهم خُلُقا ، وأسهلهَم سُهُولة . فإن ذكروا دَجاجةً ، قال : أيْن كانت يا أبَا عِمرانَ من تلك الدّجاجةِ[1] ؟ فإن ذكروا بطّةً أو عَناقا[2] أو جَزُورا[3] أو بقرة ، قال : فأين كانت هذه الجَزورُ فى الجُزُر ، من تلك الدّجاجة فى الدجَاج ؟ وإن استسمن أبو الهذيل شيئا من الطير والبهائم ، قال : لا واللهِ ، ولا تلك الدّجاجة ! وإن ذكروا عُذوبة الشحم ، قال : عُذوبةُ الشحم فى البقر والبطّ وبطونِ السمك والدّجاج ، ولا سيما ذلك الجنسُ من الدّجاج . وإن ذكروا ميلاد شىء أو قدومَ إنسان ، قال : كان ذلك بعد أن أهديتُها لك بسنة ؛ وما كان بين قدوم فلان وبين البَعْثةِ[4] بتلك الدّجاجة إلاّ يومٌ .

وكانت مَثَلا فى كلّ شىء ، وتاريخا فى كلّ شىء !

* ما قاله أبو هذيل :

وأقبل مرّة على محمد بن الجَهْم ، وأنا وأصحابُنا عنده ، فقال : إنّى رجل منخرق الكفّين ، لا أليق شيئاً[5] . ويدى هذه صَناعٌ فى الكسب ، ولكنّها فى الإنفاق خرقاء ! كم تظنُّ من مائة ألفِ درهم قَسَمْتُها على الإخوان فى مجلسٍ ؟ أبو عثمانَ يعلمُ ذلك ! أسألُك بالله يا أبا عثمانَ هل تعلمُ ذلك ؟ فقلت يا أبا الهُذيل ، ما نشكُّ فيما تقول ـ فلم يرض باحتضارى[6] هذا الكلامَ حتى استشهدنى ، ولم يرض باستشهادى حتى استحلفنى .

* نوادر المدائنى فى البخل :

وكان أبو سعيدٍ المَدائنىُّ إماماً فى البخل عندنا بالبَصْرة . وكان من كبار المُعْتَنِين وميا سيرهم . وكان شديدَ العقل ، شديدَ العارضة[7] ، حاضرَ الحجّة ، بعيد الرّويّة .

وكنت أتعجّبُ من تفسير أصحابنا لقول العرب فى لُؤْم اللئيم الراضِع :

---

(١) يقصد التى أهداها إلى مويس .
(٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز .
(٣) بعيراً .
(٤) أى إرسالها إليك .
(٥) أى ما أمسك شيئاً .
(٦) أى حضورك وسماعى .
(٧) البديهة .

قال أصحابنا : كلُّ لئيم بخيلٌ ، وليس كلُّ بخيل لئيما ؛ لأنّ اسمَ اللئيم يقع على البخل ، وعلى قلّة الشكر ، وعلى مَهانة النفس ، وعلى أنّ له فى ذلك عِرْقا متقدّما .

قال أبو زيْد : هو لئيم ومَلْأَم . فاللئيم ما فسّرتُ ، والمَلْأَمُ الذى يقوم بعذر اللئيم[1] . فأمّا اللئيمُ الراضعُ ، فالذى لا يحلبُ فى الإناء ، ويرضَعُ الخلفُ[2] ، مخافةَ أن يضيعَ من اللبن شىءٌ .

قال ثَوْب بنُ شَحْمَةَ العَنْبَرِىُّ[3] فى امرأته الهَمْدانيّة :

وحديث لا مجةَ[4] التى حدّثتنى ... تدعُ الإناء تَشَرُّباً للقادِم

القادمان : الخلْفان المقدَّمان .

فلمّا بلغه ذلك عنها طلّقها . فلمّا طلّقها قيل له : إنّ البخلَ إنّما يَعيبُ الرجالَ ، ومتى سمِعْتَ بامرأة جِيَتْ فى البخل ؟ قال : ليس ذلك بِى[5] . أخاف أن تَلِدَ لى مثلَها .

قال رافعُ بنُ هُرَيْم :

... ... تحلُبُ قاعداً ... وتَلْمُجُ أحيانا وقَبْعُبُك[6] حاضِرُ

يدعو الله عليه أن يجعلَه صاحبَ شاءٍ[7] ، ولا يجعلَه صاحبَ إبل ، وأن يرتضع من الخلْف ، وإنْ كان معه إناء . والعربىّ يُمارِى (على) صاحبه[8] فيقول : إنْ كنتَ كاذبا ، فاحتلبتَ قاعدا : أى أبدلك الله بكرمِ الإبل لؤمَ الغنم .

فكيف يُتَعَجَّبُ من لؤم الراضع ، وصنعَ[9] أبو سعيد المدائنىُّ أعظمَ من ذلك ؟ اصْطَبَغ[10] من دَنٍّ خَلٍّ ، وهو قائم حتى فَنِىَ ، ولم يُخرِج منه قليلاً ولا كثيراً .

وكانت له حَلْقةٌ يقعد فيها أصحابُ الغُنْية والبخلاءُ الذين يتذاكرون الإصلاحَ[11] . فبلغهم أن أبا سعيد يأتى الحَرْبيّةَ[12] فى كلّ يوم ، ليقتضىَ رجلا هناك خمسةَ دراهم فضلَت عليه ، وقالوا : هذا خطأ عظيم ، وتضييع كثير . وإنّما الحزمُ أن يتشدّد فى غير تضييع . وصاحبُنا هذا قد رجَع على نفسه بضروب من البَلاء .

---

(١) يدافع عنه .
(٢) حلمة الضرع .
(٣) نسبة إلى قبيلة همدان .
(٤) اللامجة التى تمتص اللبن من الضرع بشفتيها .
(٥) أى ليس خوف من بخلها على تعسى .
(٦) القعب القدح الكبير الذى يحلب فيه .
(٧) جمع شاه .
(٨) يجادله .
(٩) أى كيف يتعجب من لؤم الراضع مع أن أبا سعيد فعل ما هو أعجب منه .
(١٠) أى كان (يأتدم) يغمس من الدن دون أن يأخذا منه فى إناء حتى لا يضيع منه شىء .
(١١) المقصود إصلاح المال بالبخل .
(١٢) مكان ببغداد .

فاجتمعوا عليه على طريق[1] التفرّغ له ، والاستفادة منه . قالوا : نراك تصنعُ شيئا لا نعرفه ، والخطأ منك أعظمُ منه من غيرك . قد أشكل علينا هذا الأمرُ ، فأخبِرْنا عنه ؛ لقد ضاقت صدورُنا به : خبِّرنا عن مُضِيِّك إلى الحربيّة ، لتقتضى خمسة دراهم . فواحدةٌ[2] : أنّا لا نأمَن عليك انتقاضَ بدنك[3] ، وقد خلا ما خلا من سِنّك ، وأن تعتلّ ، فتدعَ التَّقاضِيَ الكثيربسبب القليل . وثانيةٌ : أنّك إن تَنْصَب هذا النَّصَبَ ، فلا بدّ لك من أن تزداد فى العَشاء إن كنتَ ممن يتعشَّى ، أو تتعشَّى إن كنتَ ممن لا يتعشَّى . وهذا إذا اجتمع كان أكثرَ من خمسةِ دراهم .

وبعدُ ، فإنّك تحتاجُ أن تشُقّ وسَط السوق وعليك ثيابُك ، والحَمُولة[4] تستقبلك . فمن هاهنا نَتْرَةٌ ، ومن هاهنا جَذْبةٌ ؛ فإذا الثوبُ قد أودَى . ومن ذلك أنّ نعلَك تنقَبُ وترِقُّ ، وساقَ سراويلك تتّسخُ وتَبْلَى ، ولعلّك أن تعثُرَ فى نعلك فتقدَّها قدّا ، ولعلّك أن تِهرتَها[5] هَرْتا .

وبعدُ ، فاقتضاءُ القليل أدْلَى بك إلى هذا [لو] بلغت منه شيئا . وإنّك أفضل[6] ؛ إلاّ أنّا نحبُّ أنّك تُجلِّى عن الأمر بشىء ؛ فليس كلُّنا يثقُ لك بالصوابِ فى كلّ شىء .

قال أبو سعيد : أمَّا ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإنّ الذى أخافُ على بدنى من الدَّعة ومن قلّة الحركة أكثرُ . وما رأيتُ أصحَّ أبدانا من الحمّالين والطوَّافين . والقومُ قَبلى إن يموتوا[7] ، لم يكن لهم تلك عادةً . أَوَ لَيْسَ يقول الناس : واللهِ لَفلانٌ أصحُّ من الجَلاوِزة[8] ؟ (يعنى اختلافَ الحلاوزة فى العَدْو)[9] . ولربّما أقمتُ فى المنزل لبعض الأمر ، فأكْثِرُ الصعودَ والنزولَ ، خوفا من قلّة الحركة .

وأمّا التشاغلُ بالبعيد عن القريب ، فإنّى لا أعرِضُ للبعيد ، حتى أفْرُغَ من القريب .

وأمَّا ما ذكرتم من الزيادة فى الطعام[10]، فقد أيْقَنَتْ نفسى ، واطمأنّ قلبى ، على أنّه ليس لنفسى عندى إلاَّ ما لَها ، وأنّها إنْ حاسبتنى أيّامَ النَّصَب ، حاسبتُها أيّامَ الراحة ؛ فستعلمُ حينئذ أينَ أيّامُ الحربيّة من أيّام ثَقِيف[11] ؟

وأمَّا ما ذكرتم من تَلَقِّى الحَمُولة ، ومن مزاحمة أهل السوق ، ومن النَّتْر والجذَب ، فأنا أقطعُ عَرْض السوق من قبلِ أن يقومَ أهلُ السوق لصلاتهم . ثم يكونُ رجوعى على ظَهْرِ السوق[12].

---

(١) أى بقصد .
(٢) فأولاً .
(٣) ضعفه .
(٤) الدواب المحملة .
(٥) تمزقها .
(٦) أى أفضل منا رأياً .
(٧) أى أن أسرع إليهم الموت .
(٨) جمع جلاوز وهى الشرطى .
(٩) العدو كثرة تحركهم وفى نسخة (العدوى) وهذا غير ملائم . (١٠) فى نسخة (الطعم) .
(١١) ثقيف قبيلة معروفة بالطائف . وكانت له أيام راحة فيها .
(١٢) أى من طريق إلى خلف السوق . وليس به زحام .

وأمّا ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل . فإنّى من لَدُنْ خروجى من منزلى ، إلى أن أقرُبَ من باب صاحبى ، فإنّا نعلى فى يدى وسراويلى فى كُمّى ! فإذا صرت إليه لبستُها ! فإذا فَصَلْتُ[1] من عنده خلعتُها ! فهما فى ذلك اليوم أوْدَعُ أبدانا[2] ، وأحسنُ حالا !

بقى الآنَ لكم ممّا ذكرتم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فهاهنا واحدةٌ تفى بجميع ما ذكرتم . قالوا : وما هى ؟ قال : إذا علِم القريبُ الدارِ ، ومَنْ لى عليه ألوفُ الدنانير ، شدّةَ مطالبتى للبعيد الدارِ ، ومَنْ ليس لى عليه إلاّ الفلوسُ ، أتى بحقّى ، ولم يُطْمِع نفسَه فى مالى . وهذا تدبيرٌ يجمع لى إلى رجوع مالى طولَ راحة بدنى[3] . ثم أنا بالخيار فى ترك الراحة ؛ لأنّى أقْسِمُها على الأشغال حينئذ كيف شئتُ[4] . وأخرَى ، أنّ هذا القليلَ[5] لو لم يكن فضلةً من كثير ، ومُوصَّلاً بدَيْن لى مشهورٍ[6] ، لجاز أن أتجافَى عنه . فأمّا أنْ أدَعَ شيئا يُطْمِع فى فُضولِ[7] ما يبقَى على الغُرماء ، فهذا مالا يجوز .

فقاموا وقالوا بأجمعهم : لا والله ، لا سألناك عن مشكِلة !

حدّثنى أحمدُ المكّىُّ ، أخو محمدٍ المكّى ـ وكان متّصلا بأبى سعيد ـ (نَسيتُ القُنْيَةَ ، ونَسيتُ صنعةَ المال ، لأعاجيب أبى سعيد وحديثِهِ)[8] ، قال أحمدُ : قلت له مَرّةً : واللهِ إنّك لكثيرُ المال ، وإنّك لتعرِف ما نجهلُ ، وإنّ قميصَك وَسِخٌ ، فلِمَ لا تأمُر بغسله ؟

قال : فلو كنتُ قليلَ المال ، وأجهلُ ما تعرف ، كيف كان قولُك لى[9] ، إنّى قد فكّرتُ فى هذا منذُ ستّةِ أشهر ، فما وضَح لى بعدُ وجهُ الأمر فيه . اقول مرّةً : الثوبُ إذا اتّسخ أكلَ البَدَنَ ، كما يأكلُ الصدأ الحديدَ ، والثوبُ إذا تَرادَفَه[10] العرقُ وجَفّ ، وتراكَمَ عليه الوسَخُ ولَبِدَ[11] ، أكِلَ السُّلْكُ[12] ، وأحْرِقَ الغزْل . هذا مع نَتْن ريحه ، وقُبح منظَره .

وبعدُ ، فإنّى رجل آتى أبوابَ الغُرَماء ، وغِلْمانُ غرمائى جبابرةٌ . فما ظنُّكَ بهم إذا رأَوْنى فى أطْمارٍ وسِخةٍ ، وأسْمالٍ دَرِنة[13] ، وحالٍ حدّادٍ[14] ؟ جَبَهوا[15] مرّةً ، وحَجَبوا مرّة ، فيرجعُ ذلك علينا بمضَرّة . من إصلاح المال أنْ يُنْفَى عنه كلُّ ما أعان على حبْسه[16] ، مع ما يَدْخُل من الغيظ ، ويَلْقَى مَنْ

---

(١) فصل من البلد فصولاً : خرج .
(٢) أعظم راحة وأسكن .
(٣) أى أن جسمه يرتاح بسبب عدم المطالبة .
(٤) أى يقسم ماله على الأشغال .
(٥) الدين القليل .
(٦) يعرفه كل الدائنين .
(٧) البقية
(٨) هذا من كلام الجاحظ .
(٩) تسألنى رغم علمك بغنائ ومعرفتى فماذا كنت تصنع لو كنت فقيراً قليل المعرفة ؟
(١٠) تبع بعضه بعضاً .
(١١) لصق .
(١٢) الخيط .
(١٣) الثوب البالى ـ ودرنه وسخه .
(١٤) وحال تشبه حال حداد فى اتساخ وتمزق ملابسه .
(١٥) جواب شرط محذوف .
(١٦) تجنب كل ما يساعد على أحتباس المال فى أيدى الغرباء لينمو ويزيد .

كان كذلك من المكروه [1] .

فإذا اجتمعتْ هذه الخواطر هَمَمْتُ بغسلها ، فإذا هممتُ به ، عارضنى مُعارِضٌ [2] يُوهمنى أنّه أتانى من جهة الحزم ، ومن قِبَل العقل ، فقال : أوّلُ ذلك الغُرْمُ الذى يكون ، فى الماء والصابون . والجارية إذا ازدادت عناء [3] ، ازدادت أَكْلا . والصابَونُ نُورَةٌ [4] ، والنُّورةُ تأكل الثوب . وإن انخزَقَ [5] ، لا يزال الثوب على خطر ، حتى يُسْلَم إلى العَصْر والدّق . ثم إذا أُلْقِىَ على الرَّسَنِ [6] ، فهو بِعَرْضِ [7] الجَذْبَة والنَّتْرَة والعَلْق [8] .

ولا بُدَّ من الجلوسِ يومئذ فى البيت ، ومتى جلستُ فى البيت ، فتحوا علينا أبوابا من النفقةِ ، وأبوابا من الشهوات . والثيابُ لا بدَّ لها من دَقٍّ . فإن نحن دققناها فى المنزل قطّعناها . وإن نحن أسلمناها إلى القَصّار [9] ، فَغُرْمٌ على غُرْم . وعلى أنّه ربّما أَنزَل بها من المكروه ما هو أشدُّ [10] . وما جلستُ فى المنزل قطُّ إلاّ أَرجفَ بى [11] الغرماء ، وادّعَوْا علىّ الأمراضَ والأحداثَ . وفى ذلك لهم فسادٌ والتواء ، وطمع لم يكن عندهم [12] .

فإذا أنا لبِستُها ، وقد ابيضّتْ وحسُنت وخفّت وطابت ، تبيّنتُ عند ذلك وَسَخَ جَسَدِى ، وكثرةَ شَعَرى ، وقد كان بعضُ ذلك موصولاً ببعض ، فعرفته ، فاستبان لى ما لم يكن يستبين [13] ، واكترثت لما لم أكن أكترثتُ له ؛ فيصيرُ ذلك مَدْعاةً إلى دخول الحمّام . فإن دَخَلْتُه فَغُرْمٌ ثقيلٌ ، مع المخاطرة بالثياب [14] . ولى امرأة جميلة شابّة . فإذا رأتنى قد أطّلَيْتُ [15] وغسلتُ رأسى وبيّضت ثوبى ، عارضتنى بالتطيّب ، وتلبَس أَحسَنَ ثيابِها !

مع أمور كثيرة ، نسى بعضها أحمد ، وبعضَها أنا .

وكان أبو سعيد هذا مع بخله أشدَّ الناس نفساً ، وأحماهم أنفاً [16] ! بلغ من أمره فى ذلك ، ومن بلوغه [17] فيه ، أنّه أتى رجلا من ثَقِيف يقتضيه ألفَ دينار ، وقد حلَّ عليه المالُ . فكان ربّما أطال عنده الجلوسَ . ويحضُرُ عنده الغَداءُ ، فيتغدَّى معه . وهو فى ذلك يقتضيه .

---

(١) موضع هذه العبارة بعد قوله : بمضرة ، من الغيظ أى بسبب الرد والتحقير.
(٢) أى من الفكر والرأى .
(٣) زيادة العناء بسبب تكليفها غسل الثياب .
(٤) مادة يزال بها الشعر . ويصنع بها الصابون .
(٥) الضغد والشد .
(٦) الحبل الذى ينشر عليه الغسيل .
(٧) الآفة التى تعرض للشىء .
(٨) الخرق الذى يصيب الثوب من شىء غلق به
(٩) مبيض الثياب .
(١٠) أى أشد مما يصيبها من التقطيع لو غسلت فى المنزل .
(١١) أكثروا من الأقوال السيئة .
(١٢) بقاءه فى المنزل فساد للغرماء لتكاسلهم عن أداء الدين .
(١٣) إذا غسل ثيابه تجلى وسخ جسمه .
(١٤) يظهر أن الثياب كانت تسرق كثيراً فى الحمامات .
(١٥) بالنورة لإزالة شعرى .
(١٦) أعظمهم أنفة .
(١٧) الوصول للغاية .

فلما طال عليه المَطْل ، قال له يوما ، وهو على خِوانه : إنّ لهذا المال زكاةً مؤدّاةً ، وقد علِمنا [أنّا][1] حين أخرجنا هذا المالَ من أيدينا أنّه معرَّض للذهاب ، وللمنازعة الطويلة ، ولأن يقع فى الميراث[2] . ثم رضينا منك بالربحِ اليسير ، بالذى ظنَنّاه بك من حسن القضاء ، ولولا ذلك لم نرض بهذا المال[3] . وهذا المالُ إذا كان شرطُه أن يرجع بعد سنة ، فرفّهتُ عنك بحسن المطالبة شهراً أو شهرين ، ثم مكث عندى إلى أن أُصيبُ له مثلَك[4] ، شهراً أو شهرين ، سُحِقَ فضْلُه ، وخرج علينا فضلٌ[5] . ومثلُك يكتفى بالقليل . وقد طال اقتضائى ، وطال تغافُلك .

يقولُ هذا الكلامَ ، وهو فى ذلك لا يقطع الأكلَ ـ فأقبل عليه رجل من ثقِيف ، فعرّض له بأنّه لو أراد التقاضِيَ مَحْضاً ، لكان ذلك فى المسجد ، ولم يكن فى الموضع الذى يحضرُ فيه الغَداء . فقطع الأكلَ ، ثم نزَا[6] فى وجهه الدم ، ونظر إليه نظرَ الجمل الصَّئول ، ثم كاد يطير[7] .

ثم أقبل عليه فقال : لا أمَّ لك ! أنا إنّما اصطبغتُ من دَنٍّ حلٍّ حتى فَنِيَ ، من حسن العقل . وأحببتُ الغِنَى ، بفضل بُغْضِى للفقر ، وأبغضْتُ الفقرَ ، بفضل أَنَفَتِى من احتمال الذلّ . تُعرِّض لى ـ لا أمّ لك ! ـ بأنّى أرغب فى غَدائه ؟ . والله ما أكلتُ معه إلاّ لِيَسْتَحْسِيَ من حُرْمة المؤاكلة ، ولِيصيرَ كرمهُ سبباً لتعجيل الحاجةِ .

ثم نهض بالصَّك وعليه طِينتهُ[8] ، فاعترض بها الحائط حتّى كسرها . ثمّ تفل فى الكتاب ، وحكّ بعضه ببعض . ثمّ مزّقه ورمَى به . ثمّ قال لكلّ من شهِد المجلسَ : هذه ألفُ دينار كانت لى على أبى فلان ، اشهدوا جميعاً أنّى قد قبضتُ منه ، وأنّه بَرِىء من كلّ شىء أطالبه . ثمّ نهض .

فلمّا صنع ما صنع ، أقبل الغريمُ على صاحبه فقال : ما دعاك إلى هذا الكلام ؟ ثم تقولُ لهذا الرجل على مائدتى ! وتُقْدِمُ بهذا الكلام علَى من لا تعرفُ كيف موقعُ الأمور منه ؟ وبعدُ ، فقد والله أردتُ مَطْلَه إلى أن أبيع الثمَرَ ، ورجوْنا حلاوتَه[9] . فقد أحسنتَ إليه ، وأسأتَ إلينا ، وعجّلتَ عليه مالَه . اذهب يا غلامُ ، فاضرِب بذلك الثمرِ السوقَ[10] فبعه بما بلغ !

فأخذ مالَه كَمَلاً[11] . ثم ركِب إليه ، فأبى أن يأخذَه . فلمّا كثُر الأمرُ فى ذلك قال : أظنُّ الذى دعا

---

(١) حشو لا لزوم له .
(٢) من أخطار الدين . موت المدين وتحمل الورثة للدين فيضيع كله أو بعضه .
(٣) بذلك الربح اليسير . (٤) مقترضاً مثلك .
(٥) أى ضاع ربحه وهو جواب إذا . وخرج علينا فضل أى زاد ما تنفقه .
(٦) وثب . (٧) يطير من الغضب أو كاد .
(٨) طين خاص يلصق بالصك ليختم عليه . (١٠) تعبير جميل لإقتحام السوق بالبضاعة فى وقت غير ملائم .
(٩) ما ينتظر من كسب عند ارتفاع ثمنه فى السوق . (١١) أى أعطاه حقه كاملاً وافياً بعد ما باع الغلام الثمر .

صاحبَك إلى ما قال أنّه عربيٌّ وأنا مولىً [1] . فإن جعلتَ شفعاءك من الموالى أخذتُ هذا المال ، وإن لم تفعل فإنّى لا آخذه . فجمعَ الثَّقَفِىُّ كُلَّ شُعُوبِىٍّ [2] بالبَصْرة ، حتى طلبوا إليه ، حتى أخذَ المال [3] .

* كساحة الدار :

وكان أبو سعيد يَنْهَى خادِمَه أن تُخْرِجَ الكُساحةَ من الدار ، وأمَرَها أن تجمعَها من دور السكّانِ ، وتُلقِيهَا على كُساحتهم [4] . فإذا كان فى الحينِ [5] ، جلس وجاءت الخادمُ ومعها زَبِيلٌ ، فَعَزَلتْ بين يديه من الكُساحة زَبيلا [6] ، ثم فتّشتْ واحداً واحداً . فإن أصاب قِطَعَ دراهمَ ، وصُرَّةً فيها نفقةٌ ، والدينار [7] ، أو قطعة حَلْىٍ ـ فسبيل ذلك معروفٌ . وأما ما وُجِد فيه من الصوف ، فكان وَجْهُه أن يُباع ـ إذا اجتمع ـ من أصحاب البراذِغ . وكذلك قِطَعُ الأكسية [8] . وما كان من خِرَق الثياب فمن أصحاب الصينيّات والصلاحيّات [9] . وما كان من قشور الرمّان فمن الصبّاغين والدبّاغين . وما كان من القوارير فمن أصحاب الزجاج . وما كان من نَوَى التمر فمن أصحاب الحُشُوفِ [10] . وما كان من نَوى الخَوْخ فمن أصحاب الغَرْس [11] . وما كان من المسامير وقطعِ الحديد فللحدّادين . وما كان من القراطيس فللطُّراز [12] . وما كان من الصُّحف فلرءوس الجِرار [13] . وما كان من قِطع الخشب فللكافين [14] وما كان من قطَع العِظام فللوَقود . وما كان من قِطع الخرق فللتنانير الجُدُد [15] . وما كان من إشْكَنْج فهو مجموعٌ للبناء ؛ ثم يُحرَّك ويُثار ويُخَلَّل حتى يجتمع قُماشُه . ثم يعزلُ للتَّنُّورِ . وما كان من قِطع القار بيع من القيّار ، وإذا بقى التراب خالصاً ، وأراد أن يضرب منه اللَّبِنَ للبيع وللحاجة إليه ، لم يتكلّف الماء ، ولكنْ يأمرُ جميعَ مَنْ فى الدّار ألاّ يتوضّئوا ولا يغتسلوا إلاّ عليه . فإذا ابتلّ ضربَه لِبناً !

وكان يقول : من لم يتعرّف الاقتصادَ تعرُّفى فلا يتعرضْ له .

---

(١) المعتق أو من ذرية هؤلاء .

(٢) الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم ، وتتعصب لكل ما هو غير عربى وقد رد الجاحظ على هؤلاء التى تتوقد نار الشنآن فى قلوبهم فى كتابه « البيان والتبيين » .

(٣) ألحوا عليه فى أخذ المال فأخذه .

(٤) على الكساحة التى فى دار أبى سعيد .

(٥) إذا وجد أبو سعيد فى الوقت المعين للبحث فى الكناسة والانتفاع بمحتوياتها .

(٦) أى زبيلا زبيلا .

(٧) تركيب غير بعض الشىء ، وإن كان صحيحاً بمعنى كيساً أو نحوه مما توضع فيه نفقة المنازل عادة ، وكان من الأفضل أن يقول : أو ديناراً .

(٨) قطعة الأكسية تباع من أصحاب البراذع .

(٩) إنهاء من الخزف مطلى لسد مسامه وهو معروف بهذا الاسم فى مصر والشام .

(١٠) اردأ التمر .

(١١) أصحاب البساتين .

(١٢) الطراز الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة

(١٣) تغطى بها رءوس الجرار .

(١٤) بردعته والأكاف هو صانعه .

(١٥) غير عربية ومعناها قطع الحصى ، ويخلل بالأصابع ليتميز بعضه من بعض ، والقماش هو فتات الأشياء القابلة للإحتراق . وعزل القماش للتنور : استعماله وقوداً .

وذهب من ساكنٍ له شيءٌ ، كبعض ما يُسرَق من البيوت . فقال لهم : اطرَحوا البليلةَ ترابا ، فعسى أن يندم مَنْ أخذه فيُلقيَه فى التراب . ولا يُنكِرُ مجيئُه إلى ذلك المكان ، لكثرةِ من يجىء لذلك [1] . فاتّفق أنْ طُرِح ذلك الشىءُ المسروقُ فى التراب ـ وكانوا يطرحونه [2] على كُناسته ـ فرآه فغبلَ أن يراه المسروقُ منه . فأخذ منه كِراء الكُساحةِ [3] !

فهذا حديث أبى سعيد !

* الأصمعى تاجر خاسر !! :

تمشَّى قوم إلى الأصمَعىِّ مع تاجر كان اشترى ثمرتَه بخسران كان ناله ، وسأله حسنَ النظرِ والحطيطةَ [4] ، فقال الأصمَعىّ : أسمعتم بالقسمَة الضِّيزَى [5] ؟ هى واللهِ ما تريدون شيخكم [6] عليه ! اشتَرى منى على أن يكون الخسرانُ علىّ والربحُ له ! هذا وأبيكم تجارةُ أبى العَنْبَس [7] ! اذهبوا اشترَوا علىّ طعامَ العِراق على هذا الشرط [8] ! على أنّى واللهِ ما أدرى أصادقٌ هو أم كاذب .

وها هنا واحدةٌ ، وهى لكم دونى ، ولا بُدّ من أن أحتمل لكم ، إذ لم تحتملوا [9] لى . والله ما مشَيْتم معه إلاّ وأنتم تُوجبون حَقَّه ، وتوجبون رِفْدَه [10] . لو كنتُ أوجبُ له مثلَ ما توجبون ، لقد كنت أغنيتهُ عنكم . وأنا لا أعرِفه ، ولا يَضْرِينى بحقّ [11] . فَهَلُمُّوا نتوزعْ هذه الفضلةَ بيننا بالسويّة [12] . هذا أحسنُ ممن احتمل حقًّا لا يجب عليه ، فى رِضا مَنْ يجب ذلك عليه [13] .

فقاموا ولم يعودوا . فخرج إليه التاجر من حقّه ، وأيِسَ ممّا قِبَله [14] .

---

(١) لإلقاء الكناسة .
(٢) الضمير المفعول يرجع إلى الشىء المسروق .
(٣) أى أجر ما أدته إليه الكساحة من صنيع ، لأنها كانت سبباً فى رد المسروق .
(٤) يقال أنه تمشى مع رجل اشترى منه ثمرة نخلة ، فقاله فيها خسران . وسألوه حسن النظر له ، وسأله بمعنى أن يحسن النظر فى أمره ، وأن يرجحه بالنزول لهُ عن شىء من الثمن .
(٥) الغير عادلة .
(٦) يريد نفسه .
(٧) لم أتعرف عليه والذى أعرف (أبو العنبس حجر بن العنبس الحضرمى الكوفى) من الثقات فى التابعين . ذكره العسقلانى والزبيدى .
(٨) السواد هنا سواد العراق ، لخضرة أشجاره وزروعه .
(٩) واحدة : مسألة ، أى أمر ، وهى لكم دونى أى فى خيركم وصالحكم ، ولا بد من أن أعينكم مع أنكم لم تعينونى . وطريق اعانته إياهم أن يشاركهم فى تحمل ما يطلب المدين إسقاطه من الدين ، فيقسم ما يراد حطه من الدين عليه وعليهم بالسوية ، كما سيقترح .
(١٠) وحبون الإعانة أو العطاء .
(١١) يدفعنى ويمنعنى عن مطالبته والمعنى أن التاجر لا يستطيع ضرر الأصمعى بحق له عليه .
(١٢) تعالوا نوزع مقدار الحطيطة الذى يطلبه علينا بالسوية
(١٣) أى فى رضا المدين وشفعائه .
(١٤) خرج التاجر للأصمعى من الحق الذى عليه ، بدفعه الدين كاملاً ، ويئس من كل رفق من ناحيته .